جامعـــة الأزهـــر
كليـــة اللغـــة العـربيـــة بإيتـــاي البـــارود
الـمجلـة العلميـــة

نفي الظُّلم عن اللّه ـ تعالى ـ بـ (ما) و (ليس) في خواتيم الآيات

(دراسة بلاغية تحليلية)

إعداد
د/ مى أحمد السيد طلحة
مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفرالشيخ

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)
علمية ـ محكمة ـ ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

بسم الله الرحمن الرحيم

نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ بـ (ما) و (ليس) في خواتيم الآيات (دراسة بلاغية تحليلية).

مى أحمد السيد طلحة
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفرالشيخ، جامعة الأزهر، مصر
البريد الإلكتروني: maitalha.6824@azhar.edu.eg

الملخص:
يقوم هذا البحث بدراسة موضوع نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ما" و "ليس" في خواتيم الآيات القرآنية، وهي دراسة تبحث في كتاب الله –عزوجل– الذي لا تنقضي أسراره، ولا تفنى عجائبه، ويهدف إلى التعرف على سياقات نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ما" و "ليس"، وبيان الأسرار والدقائق الكامنة في نفي الظُّلم عن الله – تعالى– في خواتيم الآيات، وبيان أسرار تنوع النظم في بنية هذا النفي من حيث الصياغة والإسناد والإطلاق والتقييد والاقتران، ومن حيث تنوع متعلق نفي الظُّلم فمرة العباد،ومرة العبيد، ومرة العالمين، ويقوم هذا البحث على مبحثين مسبوقين بمقدمة وتمهيد، المبحث الأول بعنوان: سياقات نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ما" و "ليس" في خواتيم الآيات، وله مسلكان: الأول بعنوان: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– مع إثباته لغيره،ويشتمل على ستة سياقات، والثاني بعنوان: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– دون إثباته لغيره، ويشتمل على ثلاثة محاور، المحور الأول: نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى–، وقد جاء في سياقين، المحور الثاني: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بصيغة المبالغة مقيدًا بـ"العبيد" ، وقد جاء ذلك في سياقين، المحور الثالث: نفي كينونة الظُّلم طبعًا وعادةً عن الله – تعالى– ، وقد جاء ذلك في سياق واحد، المبحث الثاني: سياقات نفي الظُّلم عن الله – تعالى– في خواتيم الآيات، ويشتمل على ثلاثة سياقات، ثم جاءت الخاتمة وفيها أهم النتائج التي ترتب عليها البحث، ثم فهرس المصادر والمراجع والموضوعات.

الكلمات المفتاحية: نفي الظلم، ما وليس، خواتيم الأيات، دراسة بلاغية.

Denying injustice to God Almighty with “what” and “not” at the end of the verses (an analytical rhetorical study).

Mai Ahmed Al-Sayed Talha
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls, Kafr El-Sheikh, Al-Azhar University, Egypt
Email: maitalha.6824@azhar.edu.eg

Abstract:
This research studies the topic of denying injustice against God - the Almighty - with “what” and “not” at the end of the Qur’anic verses. It is a study that examines the Book of God - the Almighty - whose secrets never expire or are destroyed, his wonders, It aims to identify the contexts of denying injustice against God - the Almighty - with “what” and “it is not”, and to explain the secrets and subtleties inherent in denying injustice against God - the Almighty - at the end of the verses, and to explain the secrets of the diversity of systems in the structure of this denial in terms of wording, attribution, and generalization, restriction and conjunction, and in terms of variety related to the denial of injustice sometimes the servants, sometimes the slaves, and sometimes the worlds, This research is based on two sections preceded by an introduction and preface, The first topic is entitled: Contexts of denying injustice from God - the Almighty - with “what” and “not” at the end of the verses, and it has two sections. The first is entitled denying injustice from God - the Almighty - while proving it to others. It includes six contexts, and the second is entitled denying injustice from God. - God Almighty - without proving it to others, and it includes three axes. The first axis: denying the will of injustice from God - the Almighty, and it came in two contexts. The second axis: denying injustice from God - the Almighty - in an exaggerated form restricted to “slaves”, and this came in Two contexts, the third axis: denying the existence of injustice of course and usually about God Almighty, and this came in one context, The second topic: The contexts of denying injustice to God - the Almighty - at the end of the verses, and it includes three contexts,Then came the conclusion, which contains the most important results that resulted from the research, then an index of sources and references and topics.

Keywords: Denial of injustice, What is not, Conclusions of verses, Rhetorical study.

مُقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد (ﷺ) ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين،

وبعد...

فكتاب الله– عزوجل – بحرٌ زاخرٌ لا ينفذ عطاؤه، ولا تنقضي عجائبه، فكلما تفرست في مفرداته، وتأملت في تراكيبه، ودققت في نظمه، ونسق ترتيبه، وجدت فيضًا من الأسرار لاتنقضي، وعجائب لاتنفد، وهذا يدفع الباحثين للنظر في هذا البحر الزاخر بالأسرار والدقائق التي تشهد له بإعجازه، وتفوق بيانه على توالي السنين والأيام.

فوراء تراكيبه وأساليبه من الأسرار والدقائق التي تشهد بسمو بلاغته، وبالغ إعجازه، ومن هذا الإعجاز ما نراه في النظم القرآني من نفي الظُّلم عن الله – تعالى – بـ "ما" و "ليس" في خواتيم الآيات؛ حيث تنوعت السياقات التى وقع في خاتمتها نفي الظُّلم عن الله – تعالى – بـ "ما" و "ليس"، وتنوعت بنية هذا النفي من حيث الإسناد والأداة والصياغة والاقتران، والإطلاق والتقييد، فلذلك كله أسرار ودقائق تحتاج إلى إعمال العقل، وإحكام الفكر؛ لاستنطاقها، وبيان أسرارها.

دوافع اختيار الموضوع:

وقد كان لاختيار هذا الموضوع دوافع وأسباب كان من أهمها ما يأتي:

١- التفرد المعجز للبلاغة القرآنية، وسموها على بلاغة كل بيان.

٢- التعرف على بيان صور نفي الظُّلم عن الله – تعالى–، والفروق الدقيقة بين كل صورة على حدة، من حيث النص على المثبت والمنفي في بنية النفي بنفيه عن الله – تعالى– وإثباته للغير، ومن حيث الاقتصار على نفي الظُّلم عن الله – تعالى– مع عدم إثباته للغير، ومن حيث الإسناد والإطلاق والتقييد، ومن حيث تنوع متعلق الظُّلم فمرة العباد، ومرة العبيد، ومرة العالمين،ومن حيث الصيغة المنفية فمرة ينفي أصل الظُّلم، ومرة ينفي

صيغة المبالغة "ظلاَّم".

أهداف الموضوع:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق هدفين:

١- التعرف على سياقات نفي الظُّلم عن الله – تعالى- بـ "ما" و "ليس" في خواتيم الآيات.

٢- بيان الأسرار والدقائق الكامنة في نفي الظُّلم عن الله – تعالى- بـ "ما" و "ليس" في خواتيم الآيات، وبيان أسرار تنوع النظم في بنية هذا النفي من حيث الصياغة والإسناد، والإطلاق والتقييد، والاقتران، ومن حيث تنوع متعلق نفي الظُّلم فمرة العباد، ومرة العبيد، ومرة العالمين.

الدراسات السابقة:

لم أجد فيما اطلَّعت عليه من أبحاث تدور حول هذا الموضوع إلَّا بحثًا بعنوان : (من بلاغة التناسب في الفاصلة القرآنية ، فاصلة نفي الظُّلم بـ (لا) عن الله – تعالى- أنموذجًا)، للدكتور / منصور طه صالح خضر، مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة – جامعة الأزهر ، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد التاسع والثلاثون الجزء الأول ٢٠٢٠م، وواضح من العنوان أن الدراسة مقتصرة على نفي الظُّلم عن الله- تعالى- بالأداة "لا" فقط، ومن ثمَّ فالجهة منفكة بين هذه الدراسة وبين دراستي التي ستختص بالنظر في نفي الظُّلم عن الله – تعالى- في خواتيم الآيات.

نطاق الدراسة:

ورد النفي بـ "ما" في ختام الآيات في (١١) أحد عشر موضعًا، أما النفي بـ "ليس" فقد ورد في (٣) ثلاثة مواضع.

منهج البحث:

سيكون منهجي في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على حصر الآيات التي وقع في خواتيمها نفي الظُّلم عن الله – تعالى- بـ "ما"

و"ليس"، ووضعها في سياقها الذي جاءت فيه، ثم أقوم بتحليل هذه الخواتيم تحليلًا بلاغيًّا يُجلِّي وجه المناسبة بينها وبين مضمونها؛ كاشفًا عن أسرار نظمها، ودقائقها، وأسرار التنوع بينها وبين غيرها مما يتشابه معها، وذلك كله في ضوء السياق والغرض المقصود.

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة ، وفهارس ، وبيان ذلك على النحو التالي:

المقدمة : تحدثت فيها عن دوافع اختيار الموضوع، وأهدافه ، والدراسات السابقة ، ونطاق الدراسة، ومنهج البحث.

التمهيد : يتناول:

أولًا: النفي بـ "ما" و "ليس" .

ثانيًّا: المقصود بـ "خواتيم الآيات".

ثالثًا: مفهوم الظُّلم.

رابعًا: مواضع نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ما" و"ليس" في القرآن الكريم.

المبحث الأول: سياقات نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ما" في خواتيم الآيات، ونفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ما"، له مسلكان:

المسلك الأول: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ما" مع إثباته لغيره، ويشتمل على ستة سياقات، وهي:

السياق الأول: سياق بيان ضياع نفقات الكافرين وعدم جدواها.

السياق الثاني: سياق تحذير المنافقين من مصير المكذبين من الأمم السابقة.

السياق الثالث: سياق التسجيل على المشركين بالغفلة وعدم اعتبارهم بعاقبة من سبقهم من المكذِّبين.

السياق الرابع: سياق بيان تنوع عقاب الله – تعالى– للمكذِّبين من الأمم الغابرة.

السياق الخامس: سياق تهديد المشركين بتذكيرهم بمصير من سبقهم من

المكذِّبين.

السياق السادس: سياق التضييق على اليهود بتحريم الطيبات لظلمهم لأنفسهم.

المسلك الآخر: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ما" دون إثباته لغيره، ويشتمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى– وقد جاء ذلك في سياقين:

السياق الأول: سياق نفي تسوية أهل الإيمان وأهل الكفر في الآخرة نعيمًا وعذابًا.

السياق الثاني: سياق تخويف مؤمن آل فرعون قومه وتحذيرهم من مصير الأمم المكذِّبة.

المحور الثاني: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بصيغة المبالغة مقيَّدًا بـ"العبيد"، وقد جاء ذلك في سياقين:

السياق الأول: سياق تسلية النبي (ﷺ) وحثِّه على الصبر في مقابل تطاول أهل الكفر والضلال.

السياق الثاني: سياق الحديث عن الحساب والجزاء.

المحور الثالث: نفي كينونة الظُّلم طبعًا وعادةً عن الله – تعالى– وقد جاء ذلك في سياق واحد:

سياق تحذير كفار قريش من عاقبة التكذيب.

المبحث الثاني: سياقات نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ليس" فى خواتيم الآيات، ويشتمل على ثلاثة سياقات:

السياق الأول: سياق الحديث عن قبائح اليهود وعقابهم الشديد عليها.

السياق الثاني: سياق تصوير شدة عذاب الكافرين عند الوفاة.

السياق الثالث: سياق بيان سوء عاقبة المجادل في الله – تعالى– عن جهالة وضلال.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ثم الفهارس الفنية.

تمهيد

ويشتمل على أربعة أمور:

أولًا: النفي بـ "ما" و "ليس".

ثانيًا: المقصود بـ خواتيم الآيات.

ثالثًا: مفهوم الظُّلم.

رابعًا: مواضع نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ما" و"ليس" في القرآن الكريم.

أولًا: النفي بـ "ما" و "ليس":

الأصل في "ما" و "ليس" أنهما لنفي الحال(١)، ولعل هذا الأصل هو الذي دفع العلوِّي إلى القول بأن استعمال "ما" في الحقيقة يكون لنفي الحال، وإذا استعملت في نفي المستقبل تكون من قبيل المجاز، فـ "كونها واردة في أصل وضعها لنفي الحال، ... فإن وردت لنفي المستقبل فإنما هي على المجاز، والحقيقة ما ذكرناه من نفي الحال"(٢).

وذهب بعض النحويين إلى تخصيص النفي بهما [ما، ليس] بالاستقبال، وذلك إذا وجدت قرينة تخصصهما بأحد الأزمنة، يقول ابن مالك: "والصحيح أنهما ينفيان ما في الحال وما في الماضي وما في الاستقبال"(٣).

(١) ينظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، ٢٢١/٤، ٥٩/١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، وشرح المفصل لابن يعيش، قدم له الدكتور/ إميل بديع يعقوب، ٣١/٥، ٣٦٥/٤، ٣٦٦، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، وارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي، تحقيق/ رجب عثمان محمد، مراجعة/ رمضان عبدالتواب، ٢٠٣٠/٤، مكتبة الخانجي، ط الأولي، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م؛ والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق د/ فخر الدين قباوة – الأستاذ/ محمد نديم فاضل، ص٤٩٩، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولي، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٢) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، ٢٠٧/٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٣) شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق د/ عبدالرحمن السيد، د/ محمد بدوي المختون، ٣٨٠/١، هجر للطباعة، ط الأولي، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، وينظر : حروف المعاني والصفات للزجاجي، تحقيق / علي توفيق الحمد، ٣٠/٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولي، ١٩٨٤م، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق/ د/ مازن المبارك / محمد علي حمد الله، ص ٣٨٦، دار الفكر – دمشق، ط السادسة، ١٩٨٥م.

وقد أكد كلام النحاة الدكتور/ فاضل السامرائي أثناء حديثه عن "ليس" قائلًا: "وهذا الفعل يستعمل في العربية لنفي الحال عند الإطلاق، وإذا قُيِّد فبحسب ذلك التقييد، تقول: "ليس زيد قائمًا" أي: الآن، وقال تعالى: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨ ﴾ (هود: ٨) أي: في المستقبل، وليس صحيحًا ما ذهب إليه بعض النحاة من أنها لا تنفي إلا الحال، بل هي كذلك إذا أطلقت كما ذكرنا، فإذا قُيِّدت فنفيها على حسب القيد"[١].

وكذلك "ما"؛ حيث ذهب بعض النحاة إلى أن نفيها مختص بالحال "والصحيح أنها كـ (ليس) تنفي الحال عند الإطلاق وإذا قُيِّدت فهي بحسب ذلك التقييد، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧ ﴾ (البقرة : ١٦٧)، وقال: ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦ ﴾ (الانفطار:١٦) [٢].

ويقول البقري عن "ليس" مؤكدًا كلام النحاة: "وعندنا أنها لنفي الحال أحيانًا، ولمطلق النفي أخر"[٣].

ويبقى هنا سؤال، وهو: أنهما [ما وليس] إذا كانتا متفقتين في المعنى، فهل درجة النفي معهما واحدة، أم أن أحدهما أقوى في النفي من الآخر؟

لا شك وأنهما وإن اتفقا في دلالة النفي؛ إلا أن لكل واحد منهما سياقه الذي ينادي عليه، والنفي بهما ليس على درجة واحدة من القوة، فقوة النفي

---

(١) معاني النحو، د/ فاضل صالح السامرائي، ٢٥١/١، دار الفكر، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٢) معاني النحو، ٢٥٢/١.

(٣) أساليب النفي في القرآن، د/ أحمد ماهر البقري، ص٧٧، دار المعارف، ١٩٨٤م.

بـ"ليس" ليست كقوة النفي بـ "ما"؛ حيث يرى الدكتور/ فاضل السامرائي أن "ما" أقوى في النفي من "ليس"، وقد استدل بأمور منها:

١- أن العرب استعملت "ليس" استعمال الأفعال، فالجملة المبدوءة بها فعلية والجملة المنفية بـ "ما" اسمية والجملة الاسمية أثبت من الجملة الفعلية.

٢- وردت "ليس" في القرآن الكريم في (٤١) واحد وأربعين موطنًا اسمها نكرة لم تدخل "من" الزائدة المؤكدة على موطن واحد منها، في حين وردت "ما" في القرآن في (٩١) واحد وتسعين موطنًا مرفوعها نكرة كلها دخلت عليها "من" الزائدة الدالة على الاستغراق والتوكيد.

٣- ورد خبر "ما" مقترنًا بالباء الزائدة الدالة على التوكيد في (٧٦) ست وسبعين موطنًا، وورد في(٣) ثلاثة غير مؤكد بالباء الزائدة، في حين ورد خبر "ليس" في (٢٣) ثلاثة وعشرين موطنًا مؤكدًا بالباء الزائدة، وفي(٥) خمسة مواطن مجردًا منها.

٤- أن الجمل التي تحتاج إلى توكيد كثير استعملها القرآن منفية بـ"ما" ولم يرد في القرآن منفيًّا بـ "ليس".

٥- مما يدل على أنها تفيد التوكيد أنها تقع جوابًا للقسم، ولم ترد "ليس" في القرآن الكريم جوابًا للقسم البتة فدلَّ ذلك على أنها آكد من "ليس" في النفي(١).

ويبدو من خلال هذه الأدلة التي ذكرها الدكتور/ فاضل السامرائي أنه نظر إلى قوة "ما" في النفي من "ليس" على أساس الاستعمال والتوظيف، ولم يلتفت إلى مبنى كل واحدة منهما؛ فلا شك أن "ليس" أزيد في البناء من "ما" فهي ثلاثة

---

(١) ينظر: معاني النحو، ١/٢٥٢-٢٥٥.

أحرف، و "ما" حرفان وزيادة المبنى تدل على زيادة المعني "فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ثم زيد فيها شيء، أوجبت القسمة له زيادة المعنى به"(١).

كما أن السياقات التى وردت فيها "ليس" في نفي الظُّلم عن الله – تعالى– وإن كانت قلة إلا أنها سياقات فيها من قوة العذاب وشدته ما ينادى على قوة نفي الظُّلم عن الله – تعالى– فكانت "ليس" هي الأنسب في هذه السياقات، يؤكد ذلك قول ابن يعيش: ("ليس" أقوى، لأنها الأصل، ثم "ما"، ثم "لات")(٢).

ثانيًا: المقصود بـ "خواتيم الآيات":

لما كان تحديد مفهوم الفاصلة ليس موضع اتفاق بين الدارسين قديمًا وحديثًا (٣)، رأت الدراسة أن تجعل مفهوم "خواتيم الآيات" عنوانًا لهذا البحث بدلًا

---

(١) الخصائص لابن جني، ٢٧١/٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الرابعة.

(٢) شرح المفصل، ١٢٢/٢.

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور ، دار المعارف، مادة (فصل)، النكت في إعجاز القرآن [ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن] للرماني، تحقيق/ محمد خلف الله، د/محمد زغلول سلام، ص٩٧، دار المعارف، ط الثالثة، ١٩٧٦م، البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ٥٣/١، دار التراث، إعجاز القرآن الكريم الأستاذ الدكتور/ فضل حسن عباس – سناء فضل عباس، ص٢٢٥، دار النفائس – الأردن ، ط السابعة، ٢٠٠٩م، من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي، ص٦٤، نهضة مصر – القاهرة، ٢٠٠٥م، الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، ص٢٣-٢٩، دار عمار، ط الثانية، ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٢٦١/٢، دار التراث، الفاصلة القرآنية(من أسرار التعبير في القرآن)، د/ عبدالفتاح لاشين، دار المريخ، ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م، مناسبة الفاصلة القرآنية لأغراض السورة" سورة الكهف" أنموذجًا، د/ الأسعد مصطفى الدرويش، دار الإحسان،ط الأولى،٢٠١٨م، الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، الدكتور/عيد محمد شبايك، دار حراء، ط الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

من الفاصلة، ويقصد به: الجملة الأخيرة في الآية، وعلى ذلك فإنَّ مفهوم الخواتيم في هذا البحث"الجملة التي تنفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ما" و"ليس" في خواتيم الآيات"، وهذا يعني أنها ليست آية مستقلة، فليس قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الزخرف الآية: ٧٦) مما يدخل في نطاق الدراسة، ويعني كذلك أنها ليست واردة في مطلع الآية فلا يدخل معنا قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ (هود:الآية١٠١).

وبلاغة حسن الختام من الأهمية بمكان، وقد أشاد العلماء بحسن الختام في القرآن الكريم فـ"من البلاغة حسن الانتهاء: وهو أن يختم الكلام بأحسن الخواتم، إذ هي آخر ما يبقي في الأسماع، وربما حفظت من بين سائر الكلام، لقرب العهد بها، فينبغي أن تكون غاية في الجودة، وألا يكون هناك سبيل للزيادة عليها، ولا لأن يؤتي بعدها بأحسن منها في حلاوتها، وعذوبتها، ورصانتها، وقوتها، وجزالتها، وفخامتها، مع تضمنها معني تامًا ، يؤذن السامع بأنه الغاية والنهاية، فإن دل على ما يشعر بالانتهاء سمي "براعة مقطع""(١).

ثالثًا: مفهوم الظُّلم:

مفهـوم الظلـم: أصل مادة (ظلم) يدور حول وضع الشيء في غير موضعه، والجَوْر والتعدي، يقول ابن منظور: الظُّلمُ: وضعُ الشيء في غير

---

(١) من أسرار البلاغة في القرآن، دكتور/ محمد السيد شيخون، ص ٢٠١، مكتبة الكليات الأزهرية، ط الأولى، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م، وينظر: تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق الدكتور/ حفني محمد شرف ص٦٢٠، ٦٢١، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، والإتقان في علوم القرآن، ٣/٣٢٠، ٣٢١.

موضعهِ. ومن أمثال العرب في الشَّبه من أشْبَه أباه فما ظلم، قال الأصمعي: ما ظَلَمَ أي ما وضعَ الشَّبه في غير موضعه.

وأصلُ الظُّلم: الجَوْرُ ومجاوزةُ الحدِّ، ومنه حديث الوضوء: فمن زادَ أو نقصَ فقد أساءَ وظلم، أي أساء الأدبَ بتركه السنة والتأدُّب بأدبِ الشرع، وظلمَ نفسه بما نقصها من الثواب... والظُّلم: الميلُ عن القصدِ، والعربُ تقولُ: الزمْ هذا الصَّوْب ولا تَظْلِمْ عنه ، أي لا تجُرْ عنُه(1).

وعرفه ابن قتيبة، فقال: "أصل الظُّلم في كلام العرب: وضع الشيء في غير موضعه، ويقال: (من أشبه أباه فما ظلم)، أي: فما وضع الشبّه في غير موضعه، وظلم السّقاء: هو أن يشرب قبل إدراكه، وظلم الجزور: أن يعتبط، أي ينحر، من غير علّة، وأرض مظلومة: أي حفرت وليست موضع حفر، ويقال: الزم الطريق ولا تظلمه، أي: لا تعدل عنه، ثم قد يصير الظلم بمعنى الشرك، لأنّ من جعل لله شريكًا: فقد وضع الرّبوبيَة في غير موضعها .... ويكون الظلم : النقصان...، ويكون الظلم: الجحد"(2).

وجاء في المعجم الاشتقاقي : (أما الظُّلم – بالضم بالمعنى المشهور فقد فسروه "بالجَوْرِ ومجاوزة الحد" وهو لا يخرج عن انتقاص المستحق؛ فالجور على حقوق الناس هو منع لهم من حقوقهم وقد قالوا: "الظَلَمَة: المانعون أهل الحق حقوقهم")(3).

---

(1) ينظر: لسان العرب، مادة : (ظلم).

(2) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق/ إبراهيم شمس الدين، ص٢٥٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان (بتصرف).

(3) المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور/ محمد حسن حسن جبل، ١٤٠٣/٣، مكتبة الآداب.

وعلق أبو عبيدة في مجاز القرآن على قوله تعالى:﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (القصص: ٢٨)؛ حيث يقول: "وهو من العدا والتعدّي والعدو واحد كله وهو الظُّلم"(١).

وعرفه القرطبي معلنا عن حكمة، فقال: "الظُّلم: وضع الشيء في غير موضعه في أصل اللغة، وهو في الشرع محرّم مذموم"(٢).

وكل هذه النصوص تدل على أن الظُّلم يدور حول التعدِّي والجَوْرِ والجحد والنقصان ووضع الشيء في غير موضعه.

رابعًا: مواضع نفي الظُّلم عن الله – تعالى- بـ"ما" و"ليس" في القرآن الكريم:

ورد نفي الظُّلم عن الله – تعالى- بـ"ما" في خواتيم الآيات في(١١) أحد عشر موضعًا،على النحو التالي:

١-**الموضع الأول:قوله تعالى:**﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: الآية ١٠٨).

٢-**الموضع الثاني: قوله تعالى:** ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(آل عمران: الآية ١١٧).

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق/محمد فؤاد سزكين،١٠٢/٢، مكتبة الخانجي–القاهرة، ١٣٨١هـ.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له/ محيي الدين ديب ميستو – أحمد محمد السيد – يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال، ٤٣٨/٤، (دار ابن كثير، دمشق – بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت)، ط الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٣- **الموضع الثالث: قوله تعالى:** ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (التوبة: الآية ٧٠).

٤- **الموضع الرابع: قوله تعالى:** ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النحل: الآية ٣٣).

٥- **الموضع الخامس: قوله تعالى:** ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (النحل: الآية ١١٨).

٦- **الموضع السادس: قوله تعالى:** ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (العنكبوت: الآية ٤٠).

٧- **الموضع السابع: قوله تعالى:** ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الروم: الآية ٩).

٨- **الموضع الثامن: قوله تعالى:** ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ (الشعراء: الآية ٢٠٩).

٩- **الموضع التاسع: قوله تعالى:**﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾(غافر: الآية ٣١).

١٠- **الموضع العاشر: قوله تعالى:** ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (فصلت: الآية ٤٦).

١١- **الموضع الحادي عشر:قوله تعالى:** ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾(ق:الآية٢٩).

هذه هي المواضع التي ورد فيها نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ما" في خواتيم الآيات.

-المواضع التي ورد فيها نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ليس" في خواتيم الآيات:

ورد نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ "ليس" في (٣) ثلاثة مواضع:

١-**الموضع الأول:** قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (آل عمران الآية: ١٨٢).

٢-**الموضع الثاني:** قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنفال الآية: ٥١).

٣-**الموضع الثالث:** قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحج الآية:١٠).

□

المبحث الأول
سياقات نفي الظُّلم عن الله ـتعالىـ
بـ (ما) في خواتيم الآيات

جاء نفي الظُّلم عن الله . تعالى . بـ "ما" في خواتيم الآيات، له مسلكان:

المسلك الأول: **نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ مع إثباته لغيره**،

وقد جاء هذا المسلك في ستة سياقات:

السياق الأول: سياق بيان ضياع نفقات الكافرين وعدم جدواها:

وفي سياق بيان ضياع نفقات الكافرين وعدم جدواها، وتأكيد مسئوليتهم عن ضياع أعمالهم بظلمهم لأنفسهم يأتي نفي الظُّلم عن الله – تعالى–، وإثباته لهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (آل عمران: ١١٦ – ١١٧).

مناسبة الآيتين اللتين وقع في نهايتهما نفي الظُّلم عن الله –تعالى–:

جاءت هاتان الآيتان اللتان وقع فيهما نفي الظُّلم عن الله – تعالى– وإثباته للكافرين في مقابلة الطائفة المؤمنة التي قويت صلتها بالله – تعالى– ؛ حيث تسعى في الخير، وتحتشد في الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (آل عمران: ١١٣: ١١٥)

ففي مقابل هذا الفريق الذي احتشد للخير وقام له، وجُوزيَ عليه خير الجزاء في الآخرة، يأتي فريق أهل الكفر والضلال موصوفًا بما يكشف عن

بطلان أعماله الصالحة، وضياع ثوابها في الآخرة، فإنه – تعالى –: "لما ذكر أن ما فعله المؤمنون من الخير فإنهم لا يُحرمون ثوابه، بل يجْنُون في الآخرة ثمرة ما غرسوه في الدُّنيا، أخذ في بيان نفقةِ الكافرين، فضرب لها مثلاً اقتضي بطلانها وذهابها مجاناً بغير عوض"(١).

ومن المناسبة . أيضًا . أنه . تعالى . لما ذكر علمه بالمتقين في الطرف السابق "والله عليم بالمتقين"، وكان ذلك يقتضي علمه بالعاصين أيضًا، ناسب أن يذكر هؤلاء العصاة، وأن ظلمهم لأنفسهم هو الذي نادى على ضياع أعمالهم.

–معني التمثيل الذي جاء في خاتمته نفي الظُّلم عن الله . تعالى . تذييلًا له:

لابد من فهم التمثيل الذي جاء في خاتمته نفي الظُّلم عن الله . تعالى . وإثباته للكافرين تذييلًا له، فهو الذي يكشف عن سر ختم الآية بهذا التذييل اللافت ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧ ﴾ " يقول ابن القيم موضحًا هذا التمثيل في الآية الكريمة ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧ ﴾ : "مثل ضربه الله لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبه . سبحانه . ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر لا يبتغون وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله، وإتباع رسله . عليهم الصلاة والسلام . بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جدًا يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته"(٢).

---

(١) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، المحقق / صدقي محمد جميل، ٣١٤/٣، دار الفكر . بيروت، ١٤٢٠هـ.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ، ص ٥٣، مكتبة الصحابة بطنطا، ط الأولي ، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.

واللافت في هذا المثل أن النظم القرآني أطلق لفظ الإنفاق دون تقييد وذلك ليعم الضياع والهلاك جميع ما ينفقون، ثم التعبير باسم الإشارة للقريب "هذه"، وذلك للتحقير، ثم التعبير "الحياة الدنيا" وهو تعبير له قيمته في هذا السياق حيث يدل على أن إنفاقهم لم يكن للآخرة وإنما كان من أجل الدنيا التي هي قمة في الدناءة والحقارة، وأن هذا الإنفاق الذي كان في الدنيا ولأجلها قد ضاع هباءً منثورًا في الآخرة.

ثم قوله في بنية المشبه به "ريح" فقدم "ريح" على "حرث" إذ إن "أصل الكلام . والله أعلم . مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة وهو تقديم ما هو أهم، لأن الريح التي هي مثل العذاب ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث، فقدمت عناية بذكرها؛ واعتمادًا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه"(١).

ثم التعبير بـ "ظلموا أنفسهم" والتعبير بالظُّلم يكشف عن سببية هذا الإعلام "فأهلكته" "وإنما وصُفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشدُّ وأبلغ"(٢).

ثم يترقى في النظم القرآني في بيان السبب الذي أهلك أعمالهم، وضيَّع نفقاتهم، وفي تأكيد وتصعيد مسئوليتهم عن هذا الضياع بما ينفي عن الله . تعالى . ظلمه لهم بهذه الخاتمة ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾.

---

(١) حاشية ابن المنير على الكشاف، ٤٥٨/١، دار المعرفة ، بيروت – لبنان.

(٢) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، ٧٥/٢، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

-فقه نسق هذه الخاتمة وبيان أسرار نظمها:

وهكذا تأتي خاتمة هذه الآية مرتبطة بما قبلها أشد الارتباط فإنفاق هؤلاء كان من أجل الحياة الدنيا، ولم يكن مبنيًّا على إيمان وطاعة ، بل على كفر وطغيان "إن الذين كفروا.." وبيان السبب الذي ضيَّع هذه الأعمال "ظلموا أنفسهم..." كل ذلك مهَّد لنفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ صراحة، وإثباته هذا الظُّلم لهم، تأكيدًا وتقريرًا.

-والمتأمل في خاتمة هذه الآية يري فيها من الدقائق والأسرار ما يحتاج إلى بيان:

فأول ذلك "الواو" العاطفة التي تعطف نفي الظُّلم عن الله – تعالى- على الإعلام المقترن بفاء التعقيب "فأهلكته".

ثم مجيُ الظُّلم هنا منفيًّا عن الله – تعالى- بأداة النفي "ما" التي تدل على تأكيد هذا النفي، أي: نفي ظُلم الله – تعالى- لهم حال إهلاك أموالهم ، ويدل هذا النفي بـ "ما" أيضًا على استمرارية نفي الظُّلم عن الله – تعالى- وعن غيرهم، وهذه حقيقة ثابتة راسخة ؛ إذ الظُّلم في حق الله – تعالى- مستحيل، وهو نفي يتجاوب مع تأكيد نسبة الظلم إلى الكافرين، ثم التعبير بالفعل الماضي "وما ظلمهم..." الذي يفيد تحقيق نفي الظُّلم عن الله – تعالى- وتأكيده، ثم التعبير بلفظ الجلالة "الله" الذي يدل على الكمال المطلق ، والذي يدل على أن الظُّلم لا يتلاءم مع جلاله وهيبته.

ثم إن نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ هنا بصريح لفظ الجلالة "الله" يتلاءم كذلك مع سياق السورة التي يدل مطلعها على أنه من أخص صفاته وتحقيقًا لمبدأ العدل والقيومية التي تقتضي نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ في هذه الخاتمة.

وفي نفي الظُّلم عن الله – تعالى- هنا كذلك دفع لما قد يتوهم من أن ما فعل بنفقات الكافرين وضياعها ، إنما هو من باب ضياعها ظلما فنفى ذلك عن الله ـ تعالى ـ فـ "لما كان ـ سبحانه ـ موصوفًا بالحكم العدل القائم بالقسط ،

وأنه لا ينسى خيرًا فُعل قال دفعًا لتوهم أن ذلك بخس ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾"(١).

ثم إن ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ..... ﴾إنما هو بمثابة التصعيد والتوكيد لقوله تعالى في شأن المؤمنين ﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥ ﴾ ؛ إذ من مقتضي عدله . تعالى . مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ ولذلك عندما ذكر الله – تعالى– جزاء المتقين ناسب أن يذكر عقاب الكافرين؛ لأن المساواة بين الاثنين في الجزاء برغم اختلاف فعليهما سيكون ظلمًا لأحدهما، وهذا لا يليق بكمال الله – تعالى– وهيبته، ولذا كان من مقتضي عدله إعطاء كل ذي حق حقه.

كما أن نفي الظُّلم عن الله . تعالى . هنا يؤكد نفي الظُّلم عن الله . تعالى . الذي قد سبق في قوله تعالى :﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾. فإنه هنا إذا قد نفي الظُّلم عن الله – تعالي– وأثبته للكافرين صراحة، فإنه هناك قد اكتفي بنفيه صريحًا عن الله – تعالي– ، ولم ينسبه للكافرين في النظم وإنما فُهِم ضمنًا، ومن ثم كان التصريح هنا بالنفي والإثبات تصعيدًا للنفي السابق.

ثم يأتي هذا الإثبات ﴿ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧ ﴾، وأول ما تجد فيه من تأكيد نسبة الظُّلم إليهم، تكرار كلمة "أنفسهم"؛ حيث ذكرت قبل ذلك "ظلموا أنفسهم" فقد أوقع الظُّلم على أنفسهم مرتين، وكان وراء ذلك زيادة البيان والإيضاح والتأكيد في نسبة الظلم إلى أنفسهم وأن هذا الظلم في غاية القباحة، إذ إن ظلم الإنسان نفسه لا يرضاه عاقل.

ثم إن تقديم المفعول "أنفسهم" يحقق التناسب في ختام الآية، ويحقق كذلك تأكيد أنهم هم الذين أوقعوا الظُّلم على أنفسهم، ولم يأتهم من الخارج، مما يعني

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، ٣٦/٥، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

شدة توبيخهم وتبكيتهم. ثم يأتي التعبير بالفعل المضارع للدلالة على تجدد هذا الظُّلم منهم مرة بعد مرة، واستمرارهم عليه، وأخذهم فيه بكل فن.

وللعلماء آراء حول تقديم المفعول "أنفسهم" هنا ، فمقتضي هذا التقديم نفي الظُّلم عن الله . تعالي . ، وإثباته لأنفسهم؛ لأنهم هم الذين أوقعوه على أنفسهم ولم يوقعه أحد عليهم، فهل التقديم هنا يفيد القصر، أم أنه لمجرد العناية والاهتمام؟

القول بإفادة التقديم للقصرفي الآية لم يستحسنه السعد، بناءً على أنه يؤدي إلى التناقض؛ لأن القول بالقصر بالتقديم غير مراد، فقال: "من المواضع مما لا يحسن فيه اعتبار التخصيص لنبو المقام عنه"(١).

ويؤيده في عدم دلالة التقديم على القصر الدسوقي في حاشيته؛ حيث يقول : "التقديم هنا أيضًا لرعاية الفاصلة وذلك لأن المراد الإخبار بظلمهم أنفسهم لا الرد على من زعم ظلمهم غير أنفسهم فظهر لك أن التقديم فيما ذكر من الآيات لرعاية الفواصل ولا يخلو من الاهتمام ولا يناسب إرادة الحصر فيها عند من له ذوق ومعرفة بأساليب الكلام أي مقاصده"(٢).

وبيَّن الآلوسي سبب هذا التناقض بقوله في آية سورة النحل: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٨ ﴾ (الآية: ١١٨) "وتقديم أنفسهم على الفعل للفاصلة لا للحصر؛ وإلا لا يتطابق الكلام؛ لأن مقتضاه وما ظلمهم الله ولكن هم يظلمون أنفسهم، لا أنهم يظلمون أنفسهم لا غيرهم، وهو في الحصر لازم، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار"(٣)، ويؤكد نص

---

(١) كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني، ص٢٠٠، المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص)، ١٥٢/٢، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ، المحقق/ على عبدالباري عطية، ٢٥٣/٢، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولي، ١٤١٥هـ.

الآلوسي السابق تعقيبه على التقديم في آية سورة التوبة: ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٧٠ ﴾(الآية: ٧٠)، بقوله : "وتقديم المفعول على ما قرره بعض الأفاضل لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأي من لا يرى التقديم موجبًا للقصر كابن الأثير فيما قيل"[١].

وإذا كان الآلوسي قال: بأن التقديم هنا لا يفيد القصر؛ إلا أنه قال بإفادة التقديم للقصر في بعض المواضع، وعلى هذا النحو تراوحت تعقيباته على بقية الآيات التي عقبَّ عليها مرددًا التقديم بين القصر والاهتمام[٢].

ثم إن هناك قضية أخرى: وهي إفادة "لكن" القصر، فبعضهم قال: أنها لا تفيد القصر إذا وقعت بعد واو العطف وكان بعدها جملة، والبعض الآخر أجاز إفادتها للقصر في جميع الحالات .

يقول ابن يعقوب: "ويجعل الكلام من عطف الجمل، ويراد بالعطف ما هو أعم من عطف الجمل"[٣].

ويؤكد ذلك د/ محمد أبو موسي بقوله: وكذلك أيضًا يتناسب مع هذا النفي السابق على التقديم من طرق القصر أن يكون بالعطف ب ."لكن"، وإن كان يرد عليه أن العطف هنا وارد في الجمل، كما أن لكن مقترنة بالواو وإن كان البعض أجاز القصر على كلا الوجهين[٤].

---

(١) السابق، ٣٢٥/٥.

(٢) دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، الدكتور/ عبدالجواد محمد طبق، ص١٣٧-١٤١، دار الأرقم، ط الأولي، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٣) مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) ابن يعقوب المغربي، ١٥٢/٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٤) ينظر : دلالات التراكيب (دراسة بلاغية) د/ محمد محمد أبو موسي، ص٩٩، ١٠٠، مكتبة وهبة، ط الأولي، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

-سر حذف فعل الكينونة في نسق هذه الخاتمة:

إن نسق هذه الخاتمة ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ قد جاء مخالفًا للنسق المعهود والمطرد؛ حيث حذف فعل الكينونة هنا مع أن النسق في غير هذه الفاصلة جاء بإثباته ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(النحل الآية:٣٣)، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الزخرف الآية:٧٦)، فلماذا هذه المخالفة، وما الداعي إليها؟

يقول ابن الزبير الغرناطي مبينًا هذا السر: "والجواب عن ذلك والله أعلم . أن آية آل عمران إنما نزلت في المعاصرين لرسول الله (ﷺ) الحاضرين عند نزول الآية فورد الإخبار مساوقًا لحالهم في وقت نزول الآية وما يلي ذلك متصلًا به من الزمان فلم يكن لدخول "كان" التي تقتضي وقوع الشيء فيما تقدم من الزمان معنى تحرزه، وأما آية النحل فإخبار عمن تقدم زمانهم وعظ به غيرهم، يبين ذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، ثم قال:﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، فالإخبار عن هؤلاء القبليين المشبه بهم من بعدهم من معاصريه (ﷺ) فأحرزت "كان" هذا المعني، ولاءمت الموضع، ولم تكن لتلائم آية آل عمران، ولا الوارد في آية آل عمران ليناسب ما قصد في آية النحل، فجاء كل على ما يجب ، والله أعلم"[(١)]، فلا معنى للتعبير بـ"كان" التي تدل على الرسوخ في الظُّلم وأنه سجية فيهم في هذا السياق.

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لابن الزبير الغرناطي، وضع حواشيه/ عبدالغني محمد الفاسي ٨٩/١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

السياق الثاني: سياق تحذير المنافقين من مصير المكذِّبين من الأمم السابقة:

وفي سياق تحذير المنافقين وتخويفهم من مصير المكذِّبين من الأمم السابقة، يأتي ختام الآية التي ورد فيها هذا التحذير بنفي الظُّلم عن الله – تعالى– ، وإثباته للمكذِّبين الأمر الذي يصور منتهى عدل الله . تعالي . في استحقاق المنكرين للعذاب والهلاك.

وفي ذلك من التذكير والتهديد للمنافقين ما يدفعهم إلى الطاعة والإيمان، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾(التوبة:٧٠).

–مناسبة الآية لما قبلها:

هذه الآية التي وقع في خاتمتها نفي الظُّلم عن الله . تعالى . لها ارتباط وثيق بما قبلها، فالآيات قبلها تتحدث عن المنافقين وعن قبيح أفعالهم، وعن وعيد الله . تعالى . لهم، وعن شدة شبههم بالكفار قبلهم ، وكيف حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة فأصبحوا خاسرين، فإنه . تعالى . "لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في الرغبة في الدنيا وفي تكذيب الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام . والمبالغة في إيذائهم، هددهم بأن أشار إلى ما جرى على المتقدمين من وجوه الهلاك ليعتبروا بحالهم، ولينزجروا عماهم فيه من قبائح الأفعال"[(١)].

فهذه الآية التي وقع في خاتمتها نفي الظُّلم عن الله . تعالى– تجري في هذا السياق الذي فيه من التهديد والوعيد للمنافقين بسبب قبائح أفعالهم، وتحذرهم من مصير المكذِّبين من الأمم السابقةإن لم يرجعوا عن غيهم وضلالهم.

---

(١) حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي ، ٣٤٣/٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.

-مناسبة ختام الآية لمضمونها:

ثم يأتي ختام هذه الآية التي تتحدث عن هلاك المكذِّبين من الأمم السابقة بنفي الظُّلم عن الله – تعالي- وإثباته للمكذِّبين في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾؛ ليصور منتهي عدل الله – تعالي- حين أخذهم، فما كان ليهلكهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة، وذلك بإرسال الرسل بالبينات الواضحات، وجلَّي لهم الطريق المستقيم، ولكنهم كذبوا وحادوا عن الطريق المستقيم عنادًا وكبرًا ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون، " "فما كان الله ليظلمهم" أي بإهلاكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وإزاحة العلل ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾أي بتكذيبهم الرُّسل، ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار"(١).

فختام الآية بنفي الظُّلم عن الله تعالي- وإثباته للمعاندين يتلاءم مع مضمونها أشد التئامًا ، فما كان إهلاك المكذِّبين من الأمم السابقة إلا بسبب أنفسهم هم، وعنادهم هم، وإصرارهم هم على الكفر والعناد وعدم الاستجابة للرسل، فاستحقوا بذلك هذا العقاب الذي عوقبوا به، وهذا فيه من بالغ التحذير والتهديد للمنافقين ما فيه.

-مناسبة الآية وختامها لما عطف عليها:

ثم إن المتأمل يلحظ علاقة قوية بين هذه الآيات التي كشفت عن قبائح المنافقين وما أعده الله تعالى للأمم قبلهم من عذاب وهلاك بسبب ظلمهم وبين

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن كثير، ٣٦٩/٢، مكتبة النهضة الإسلامية.

ما ذكره من بيان جليل أعمال المؤمنين وعظيم نعيمهم في الآخرة؛ ليكون ذلك بمثابة استدراج للمنافقين وحث لهم على الدخول في الطاعة ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١ ﴾ (التوبة: ٧١)، فـ "لما بيّن . سبحانه . أن المنافقين بعضهم من بعض وما توعدهم به وما استتبعه من تهديدهم باهلاك من شابهوهم وختم بما سبب هلاكهم من إصرارهم وعدم اعتبارهم عطف ببيان حال المؤمنين ترغيبًا في التوبة طمعًا في مثل حالهم فقال: "والمؤمنون" "والمؤمنات"[(١)].

كما تتجلي هذه المناسبة . أيضًا ـ بين ختام الآية ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ ﴾ ومطلع الآية التالية، فإنه – سبحانه– لما ختم الآية بنفي الظُّلم عن الله – تعالي– وإثباته للمكذِّبين ، الأمر الذي يصور منتهى عدله – تعالى– في إهلاكه لهم بسبب قبح أفعالهم أتبع ذلك بما يؤكد ذلك ويقرره ، وذلك بذكر حال الطرف المقابل بجميل أفعاله، وما أعده الله – تعالى– له من نعيم عظيم، فتباين الطرفين حالًا ومآلًا، وعدم تساويهما في العمل والجزاء إنما يقرر و يؤكد ختام الآية السابقة ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٣٣ ﴾ وهكذا ترى التناسب العظيم بين الآية وسابقتها، والآية وختامها، وختام الآية وما جاء بعده من الآية اللاحقة.

---

(١) نظم الدرر، ٨/٥٤٣.

-من أسرار النظم في الآية وختامها:

إنّ في نظم هذه الآية محل الاستشهاد وختامها من الأسرار والدقائق ما يحتاج إلى بيان ؛حيث يأتي في صدرها هذا الاستفهام "ألم يأتهم..." وهو استفهام يحمل معني التقرير والتذكير والتهديد والوعيد لهؤلاء المنافقين من المصير الذي ينتظرهم إن هم استمروا على ما هم عليه من الكفر والعناد والتكذيب والطغيان.

الاستفهام فيه تحريك لعقولهم، وتنبيه لأذهانهم حتى يفيقوا من غفلتهم، ويرجعوا عن عنادهم، يقول عبدالقاهر : "واعلم أنا وإن كنا نفسِّر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعني: إنه ليتنبه السامعُ حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب"[١].

ثم ترى الالتفات من الخطاب في الآية السابقة ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ ﴾ (التوبة: ٦٩)، إلى الغيبة هنا "ألم يأتهم نبا الذين من قبلهم..." وهو التفات ناجع في هذا السياق، فوراءه مزيد من التهديد والوعيد، وذلك بذكر نبأ إهلاك من شابهوهم في الكفر والعناد، فقد غيبهم العذاب، فينبغي عليكم أن تعدلوا عن طريقهم حتى لا تغيبوا مثل غيابهم، وحتى لا تلاقوا مثل ما لا قوا.

وفي التعبير بلفظ "النبأ" ما يدل على أن خبر هؤلاء المكذّبين خبر ذو شأن يُعني به، ويُهتم بأمره.

---

(١)دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، ص ١١٩، مطبعة المدني . مصر، دار المدني . جدة، ط الثالثة ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

ثم إن النظم القرآني يسلك في ذكر هؤلاء المكذِّبين مسلك الإجمال "ألم يأتهم نبأ..." ثم التفصيل "قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات...".

وهذا المسلك فيه من زيادة الاهتمام والتشويق وتمكين المعني المقصود، وهو زيادة التحذير والتهديد ما فيه.

ثم إنَّ تعداد هذه الأمم المكذِّبة في هذا السياق – أيضًا– فيه زيادة تحذير وتخويف ؛ حيث "كان أكثرهم عالمين بأحوال هذه الأمم، وقد ذكر شيء منها في أشعار جاهليتهم كالأفوه الأزديّ وعلقمة بن عبدة، وغيرهما"(١).

ثم تأتي هذه الإضافة "رسلهم" وهي إضافة تخصيص، فما أتت الرسل إلا إليهم خاصة، فكان ينبغي من هذا التخصيص أن يقبلوا عليهم لا أن يعرضوا عنهم، وهذا احتجاج عليهم.

–من أسرار النظم في ختام الآية:

ثم يأتي ختام الآية ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾،وأول ما يلفت النظر في خصائص نظمها العطف بـ "الفاء" فعلام عطف، وما أسرار هذا العطف؟

إن تحديد المعطوف عليه هنا محل نظر بين العلماء؛ حيث يري أبو السعود إن المعطوف عليه محذوف، يقول : "الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام، أي فكذبوهم فأهلكهم الله ـ تعالي ـ فما ظلمهم بذلك"(٢).

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٥٨.

(٢) تفسير أبي السعود، ٢/٨١.

ويرى الطاهر أن "الفاء" عطف على قوله تعالى: ﴿ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ ﴾وما تعلق بها مما طوي من السياق يقول:" ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾، تفريع على جملة ﴿ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾والمفرَّع هو مجموع الجملة إلى قوله: "يظلمون"، لأن الذي تفرَّع على إتيان الرسل: أنهم ظلموا أنفسهم بالعناد، والمكابرة، والتكذيب للرسل، وصَمِّ الأذن عن الحق، فأخذهم الله بذلك، ولكن نُظِم الكلام على هذا الأسلوب البديع إذا ابتُدئ فيه بنفي أن يكون الله ظلمهم، اهتمامًا بذلك لفرط التسجيل عليهم بسوء صُنعهم حتى جعل ذلك كأنه هو المفَّرع وجعل المُفرَّع في صورة الاستدراك"(١).

فأبو السعود يرى أن المعطوف عليه محذوف وهو التكذيب والهلاك الذي ترتب عليه، بينما يرى الطاهر أن المعطوف عليه مذكور وهو قوله: "أتتهم رسلهم" لأن قوله تعالى :﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ مقدم على قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ وقدم سر ذكره.

ويبدو– والله تعالى أعلم – أن المعطوف ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ وما ارتبط به من الاستدراك﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ وأن المعطوف عليه هو ﴿ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ ﴾ويكون وجه التعقيب على هذا بـ "الفاء"العاطفة هو المبادرة والإسراع إلى نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بمجرد إرسال الرسل إليهم، وكأن نفي الظُّلم عن الله – تعالي– ليس مرتبطًا بهلاكهم فحسب وإنما من وقت مجيء الرسل إليهم ودعوتهم إلى الإيمان والطاعة؛ حيث تقام عليهم الحجة، وينتفي الظُّلم عن الله– تعالى– بإهلاكهم.

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهربن عاشور، ٢٦٢/١٠، الدار التونسية، الدار الجماهيرية.

-تصعيد نفي الظُّلم عن الله . تعالى . في ختام الآية:

ثم إن النظم القرآن يحتشد في تأكيد وتصعيد نفي الظُّلم عن الله – تعالى – الأمر الذي يصور منتهى عدله؛ حيث النفي بـ "ما" التي تدل على تأكيد نفي الظُّلم عن الله – تعالى– في حال هلاكهم وتدل كذلك على استمرارية هذا النفي عنهم وعن غيرهم، ثم "كان" وهي تتجاوب مع "ما" النافية في تحقيق هذا النفي واستمراريته، ولفظ الجلالة "الله" الذي يدل على الكمال المطلق بما يتنافى مع ظلم الناس، والتعبير بلام الجحود الواقعة في خبر "كان" وهي عنصر فاعل في تأكيد نفي الظُّلم عن الله . تعالى . كما أن التعبير بالفعل المضارع "يظلمهم" الذي يدل على تجدد واستمرار نفي الظُّلم في كل وقت بتجدد هلاك المكذِّبين من الأمم واستمرارهم عليه.

-تناسق تصعيد إثبات الظُّلم للمكذِّبين مع تصعيد نفي الظُّلم عن الله . تعالى .:

والمتأمل يلحظ تناسقًا بديعًا بين تصعيد نفي الظُّلم عن الله . تعالى– وتأكيد هذا النفي الأمر الذي يشهد بإثبات منتهى عدله – تعالى– في إهلاك المكذِّبين وبين إثباته للأمم المكذِّبة؛ حيث يسلك طريق التصعيد نفسه في إثبات هذا الظُّلم للطرف المقابل، الأمر الذي يشهد لهم بتصوير منتهى ظلمهم لأنفسهم، وأنهم بلغوا في هذا الظُّلم مبلغًا عظيمًا ترى ذلك واضحًا من خلال أداة الاستدراك "لكن" التي تفيد أهمية ما بعدها، ثم التعبير بفعل الكينونة "كان" على غرار ما جاء في المقابل في النفي ، وهي تفيد رسوخ هؤلاء في الظُّلم، وتجذرهم فيه، وأنه كان طبعًا وسجية فيهم، ثم تقديم المفعول "أنفسهم" وهو تقديم يدل على منتهى قبحهم، وذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم، فما ينبغي لعاقل أن يظلم نفسه التي شرفها الله – تعالي–، وأن يهين ما أعزه الله ـ تعالى .، ثم يأتي التعبير بالفعل المضارع "يظلمون" الذي يدل على تجدد ظلمهم لأنفسهم واستمراره ، فهم يجدون ظلمًا لأنفسهم بعد ظلم، ويأخذون فيه بكل طريق، ويجتهدون في إيقاعه بكل سبيل.

ثم إن إيقاع هذه الفاصلة وانتهاءها بالواو والنون "يظلمون" فيه تناسق عجيب من الناحية اللفظية، إذ الفاصلة قبلها تنتهي بما انتهت به هذه الفاصلة "الخاسرون" وإن كانت اسمية، وفيه كذلك دلالة معنوية، إذ يدل هذا المد على تطاول زمن ظلمهم، واستمرارهم في هذا الظلم المتطاول زمنًا غير قصير، وذلك حتى تقام عليهم الحجة، وتزول الأعذار، وهذا يصور منتهى عدل الله . تعالى . بهم إذ لم يستعجل عقابهم وهلاكهم.

إن هذا المد في الفاصلة فيه حث لرسول الله (ﷺ) على الصبر والتأسي بمن سبقه من الأنبياء، فليس هو بالنبي الأوحد الذي كُذِّب ، وقوبلت دعوته بالرفض والاستكبار.

السياق الثالث: سياق التسجيل على المشركين بالغفلة وعدم اعتبارهم بعاقبة من سبقهم من المكذِّبين:

وفي سياق توبيخ المشركين والتسجيل عليهم بالغفلة وعدم اعتبارهم بمصير من سبقهم من المكذبين، يأتي ختام الآية مذيلاً بنفي الظُّلم عن الله – تعالى– وإثباته للمكذِّبين؛ ليكشف عن منتهى عدله – تعالى– في إهلاكه لهم، وبيان أن ظلمهم لأنفسهم بهذا التكذيب هو الذي أوردهم مورد الهلاك، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الروم : ٩).

–مناسبة الآية لما قبلها:

هذه الآية التى وقع في ختامها نفي الظُّلم عن الله – تعالى– لها صلة قوية بالتى قبلها، فالآية التي قبلها تنعي على المشركين عدم تفكرهم في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وعدم إعمال عقولهم في هذا الكون الفسيح ﴿ أَوَلَمْ

يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (الروم:٨).

وهذه الآية محل الاستشهاد تنعي عليهم الغفلة وعدم اعتبارهم بمن سبقهم من الأمم المكذِّبة الذين أهلكهم الله ـ تعالى ـ بسبب تكذيبهم واستجابتهم لرسل الله ـ تعالى ـ؛ فهي بمثابة "انتقال من التسجيل عليهم بالغفلة، رغم وضوح الدلائل والبراهين القاطعة بنهاية هذه الحياة الدنيا، وإقبال الحياة الآخرة، إلى التسجيل عليهم بإهمال الاعتبار من وقائع الحياة وأحداث التاريخ، فلا هم اعتبروا بالدلائل الكونية اللائحة أمام أنظارهم ولا هم اعتبروا بما في الأرض من آيات حفل بها التاريخ البشري، وتدويل الله الأيام بين الناس، وازدهار الحضارات ثم اندثارها مع بقاء آثارها بما كان"(١).

-مناسبة ختام الآية لمضمونها:

ثم إن ختام هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ يلتقي مع مضمونها؛ إذ إن قوله تعالى: ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ يعني أنهم "كذَّبوهم فأهلكهم فما كان الله تعالى شأنه ليهلكهم من غير جُرمٍ يستدعيه من قبلهم"(٢).

فالختام هنا يكشف عن علة هذا الهلاك الذي نزل بالمكذِّبين ويصور منتهى عدل الله فيهم، وتأكيد منتهى ظلمهم الذي أوجب لهم هذا المصير.

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د/ عبدالعظيم المطعني، ٣/٢٤٤، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

(٢) روح المعاني، ٧/٥٢.

-مناسبة الآية وختامها لما بعدها:

ثم إن هناك مناسبة أخرى بين هذه الآية وختامها وبما جاء بعدها وهو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ﴾ (الروم: ١٠)

فهذه الآية تكشف عن سوء عاقبة المكذِّبين في الآخرة، فهي بمثابة الترقي من عذاب شديد في الدنيا إلى عذاب أشد في الآخرة، تأمل : "أساؤ السوأ" فـ "ثُمَّ" للتراخي الرُّتبي، لأن هذ العاقبة أعظمُ رُتبة في السوء من عذاب الدنيا، فيجوز أن يكون هذا الكلام تذييلًا لحكاية ما حل بالأمم السالفة من قوله ﴿ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾(١).

ومن ثم يكون هذا التذييل بمثابة التصعيد والتأكيد لنفي الظُّلم عن الله . تعالى . وإثباته للمكذِّبين، تأمل نظم الآية: ﴿ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ﴾.

-من أسرار النظم في الآية وختامها:

واضح أن هذه الآية تلتقي في ختامها مع ختام الآية السابقة في سورة التوبة وفي بعض تركيب نظمها ومن ثم قرنت بها في الاستشهاد.

فآية التوبة تبدأ بهذا الاستفهام "ألم يأتهم...." وهو استفهام تقريرى، وهذه الآية تبدأ . أيضًا- باستفهام تقريري توبيخي "أو لم يسيروا في الأرض فينظروا..." وإن كان المقرر به مختلفًا في الآيتين، والاستفهام هنا فيه توبيخ للمشركين على عدم اعتبارهم بمصير من سبقهم من المكذِّبين ، وفيه تسجيل عليهم بالغفلة، وفيه هز وتحريك لعقولهم للتفكير، وفيه استدراج لهم لإنزالهم إلى

(١) التحرير والتنوير، ٥٩/٢١.

اليقظة والاعتبار والعدول عما هم عليه من ضلال وعناد، ثم إن الاستفهام في الآية محل الاستشهاد هنا قد تقدمه استفهام في الآية السابقة عليها "أولم يتفكروا...." وتوالي الاستفهامات في هذا السياق فيه تصوير لمنتهى بلادة عقولهم، وقبح غفلتهم.

ثم إن آية التوبة سلكت مسلك الإجمال ثم التفصيل؛ حيث نصت على المكذِّبين ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ... الآية ﴾، وهنا سلكت مسلك الإجمال "الذين من قبلهم" ثم التفصيل ببيان حال المكذِّبين بما يدل على متانة قوتهم وعظم بأسهم، ومع ذلك لم يمنعهم من عذاب الله إذ جاءهم ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ..... ﴾.

ثم كان التعبير هنا ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾وهناك ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم.. ﴾ والتعبير بالفعل ""جاء" هنا يدل على منتهى بذل الرسل كل جهدهم في سبيل هدايتهم، كما يصور صعوبة من يدعوهم وموقفهم الرافض المُصِّر على عدم الاستجابة، وهذا واضح من خلال هذين الاستفهامين المنبهين على شدة الغفلة وغياب العقل ""أولم يتفكروا..." "أولم يسيروا.." ، أما التعبير بالفعل "أتى" في التوبة، فهو يدل على تسهيل أمر مجيء الرسل إليهم حتى يتناسب ذلك مع تسهيل مجيء أنباء من أهلكوا قبلهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ تسهيل أمر هدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم(١).

(١) ينظر: الإتيان والمجيء ، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، الدكتور/ محمود موسي حمدان، ص١٤٣، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

-من أسرار النظم في ختام الآية:

إن ختام الآية هنا ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾، يلتقي مع ختام الآية السابقة في سورة التوبة مبنى ومعني، حيث التفريع بـ "الفاء" الداخلة على "ما" النافية والمفرّع على قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم ﴾الذي يعنى أن هنا إيجازًا بالحذف وذلك "لأن مجيء الرسل بالبينات يقتضي تصديقًا وتكذيبًا، فلمَّا فرَّع عليه أنهم ظلموا أنفسهم عَلِم أنهم كذَّبوا الرسل، وأن الله جازاهم على تكذيبهم رسله بأن عاقبهم عقابًا لو كان لغير جُرمٍ لشابه الظُّلم، فجُعل من مجموع نفي ظُلم الله إياهم، ومن إثبات ظلمهم أنفسهم معرفة أنهم كذَّبُوا الرُّسل وعاندوهُم وحل بهم ما هو معلوم من مشاهدة ديارهم وتناقل أخبارهم"(١).

وواضح أن الحذف وإن دل عليه دليل إلا أن ارتباط نفي الظُّلم عن الله – تعالى– واقترانه بقوله تعالى : ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ فيه تأكيد لإقامة الحجة على المكذِّبين فقد جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات، وهذا فيه تأكيد لنفي الظُّلم عن الله – تعالى– الذي جاء بعده صريحًا، وتأكيد كذلك لبيان منتهى عدله، إذ لم يأخذهم بعقابه قبل أن يقيم عليهم الحجة.

ثم إن الختامين في الآيتين بعد ذلك يتحدان في تصعيد نفي الظُّلم عن الله . تعالى . وتصعيد كذلك إثباته للمكذِّبين، ويتحدان كذلك في تهديد المشركين هنا والمنافقين هناك، وشدة تحذيرهم من أن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السابقة من تدمير وهلاك بسبب تكذيبهم.

---

(١) التحرير والتنوير ، ٥٨/٢١.

ويبدو ـ والله تعالى أعلم ـ إن اتفاق الآيتين في هذا الختام مبنى ومعنى مرده إلى أن المتحدث عنهم واحد، وأن موقفهم من رفض الدعوة وتكذيب الرسل متحد كذلك فلما اتحد حالهم ناسب أن يكون ختام الحديث عنهم واحدًا وهو تصوير عدل الله في بيان منتهى عقابهم.

السياق الرابع: سياق بيان تنوع عقاب الله –تعالى– للمكذِّبين من الأمم الغابرة:

وفي سياق بيان تنوع عقاب الله – تعالى– للمكذِّبين للرسل من الأمم الغابرة يأتي ختام الآية مذيلًا بنفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ وإثباته للمكذِّبين على نهج ما سبق، قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ ﴾ (العنكبوت: ٣٨: ٤٠).

في هذه الآيات "يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذِّبة للرسل، كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، "فعاد" قوم هود ـ عليه السلام ـ كانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضر موت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسنون الحجر قريبًا من وادي القُرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيِّدًا وتمر عليها كثيرًا، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى، ووزيرهُ هامان القبطيان الكافران بالله ـ تعالى ـ وبرسوله (ﷺ)"[1].

(١) تفسير القرآن الكريم، ٤١٣/٣.

-مناسبة ختام الآية لسياقها:

يلاحظ أن ختام الآية ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ يلتقي مع خواتيم الآيات السابقة مبنى ومعني، فهذا الختام يتلاءم مع ما سبق شكلًا ومضمونًا.

كما يلاحظ أن هذا الختام يتلاءم كذلك مع مضمون الآية التي ذُيل بها، فالآية تتحدث عن تنوع ألوان عذاب المكذِّبين، تأمل: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، فهذا التفصيل في أنواع الهلاك، ومناسبة كل عقاب لأصحابه ينادي على نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ؛ إذ الجزاء على قدر الفعل، ولا يظلم ربك أحدًا.

كما أن قوله – تعالى– في مطلع الآية: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ يتناسب كذلك مع نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ وإثباته للمكذِّبين ؛ إذ إن هلاك الله ـ تعالى ـ لهم، إنما كان يسبب ظلمهم لأنفسهم ﴿ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ .

كما أن المكذِّبين الذين تحدث عنهم القرآن الكريم هنا كُثر "عاد" و "ثمود" و "قارون" و "فرعون" و "هامان" وهذا ينادي على نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى– في هذا السياق الذي كثر فيه عدد الهالكين.

-توسيع حركة النظر في سياق السورة يوقفنا على أسرار التناسب:

ثم إن توسيع حركة النظر في سياق السورة يهدينا إلى دقة المناسبة بين هذا الختام وبين تأكيد إثبات الظُّلم بصريح لفظه للمكذِّبين في ختام بعض الآيات؛ حيث يأتي في هلاك قوم نوح ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (العنكبوت : ١٤).

فهلاك قوم نوح إنما هو بسبب استمرارهم على الظُّلم الذي يعني دوام تكذيبهم لنوح . عليه السلام ..

كما أن النص على إطالة المدة التي قضاها نوح مع قومه ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ....﴾، يعني بيان منتهى عدل الله معهم؛ حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقاب الأمر الذي يؤكد نفي الظُّلم عنه . سبحانه . ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ .

ثم يأتي إثبات الظُّلم بصريح لفظه ونفي الظُّلم عن الله – تعالى– ضمنًا في قصة لوط . عليه السلام . في السورة ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾(العنكبوت : ٣١).

فقد صرح النظم القرآني باستمرارية أهل لوط في الظُّلم وأكد نسبته إليهم ليكون علة إهلاكهم ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وجاء إثبات الظُّلم لهم ضمنًا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (العنكبوت: ٣٤)، فإنزال العذاب عليهم إنما هو بسبب ظلمهم الذي تضمنه قوله: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾، ويتأكد نفي الظُّلم عن الله . تعالى . بمجيء لوط . عليه السلام . إلى قومه وتحذيرهم من الأفعال القبيحة ولكنهم لم يمتثلوا وتجاوزوا الحد في تكذّيبه "﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا

بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٨: ٣٠).

وكذلك الحال مع أهل مدين؛ حيث نصح قومه وحذرهم ولكنهم كذبوه فأخذهم العذاب بسبب تكذِّيبهم﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾(العنكبوت: ٣٧).

وكذلك ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ ﴾ ظلموا أنفسهم ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾، وكذلك ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ ... ﴾لم يظلمهم الله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

إن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الختام الذي جاء في هذه الآية محل الاستشهاد ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ إنما هو بمثابة التقرير والتأكيد لما سبق في إهلاك الأمم المكذِّبة، وأن هذا الإهلاك إنما هو بسبب ظلمهم لأنفسهم بتكذِّيبهم للرسل ، واستمرارهم على هذا التكذيب حتى أخذهم الله ـ عزوجل ـ بذنوبهم.

وهكذا يأتي هذا الختام ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ ؛ ليقرر ما تدعو إليه سورة العنكبوت وهو بيان عدل الله ـ تعالى ـ في إهلاك المكذِّبين، وتحذير المشركين من سوء عاقبة المكذِّبين، وتسلية النبي (ﷺ) بالانتقام ممن كذَّبه، وحثِّه على الصبر والتأسي.

-تناسب ختام الآية مع لاحقتها:

ثم إن ختام الآية ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ ، لا يتناسب مع السياق السابق فحسب وإنما يتناسب كذلك مع ما جاء بعدها ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾(العنكبوت: ٤١)، فإن هذا . أيضًا . من تأكيد ظلم المشركين لأنفسهم، يقول الرازي معلقًا ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ : "يعني لم يظلمهم بالهلاك وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك، وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم، أي ما كان ليضعهم في غير موضعهم، فإن موضعهم الكرامة كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته"(١).

السياق الخامس: سياق تهديد المشركين بتذكيرهم بمصير من سبقهم من المكذِّبين:

وفي سياق تهديد المشركين بتذكيرهم بمصير من سبقهم من المكذبين الذين استمروا على عنادهم وإنكارهم وجحودهم ورفضهم للحق وعدم إذعانهم للرسل، فاستأصلهم الله . تعالى . بسبب هذا الجحود والاستمرار والإصرار على الكذب، يأتي نفي الظُّلم عن الله – تعالى . وإثباته لأنفسهم في ختام الآية، قال تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ

(١) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازي، ٢٥/ ٥٧، دار إحياء التراث العربي، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ.

أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النحل: ٣٣).

-مناسبة هذه الآية لسياقها:

هذه الآيـة التـى وقـع فـي ختامهـا نفـي الظُّلم عن الله . تعـالى . وإثباتـه للمكذِّبين لها علاقة وثيقة بما قبلها فـ "إنه تعالى لما ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم، ثم توعَّد من وصف القرآن بالخيرية، بيَّن أن أولئك الكفرة لا يرتدعون عن حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد أو أمر الله بعذاب الاستئصال"[(١)].

فواضح من هذه المناسبة أن هذه الآية التي وقع في ختامها نفي الظُّلم عن الله . تعالى ـ وتأكيد نسبته إلى الكفار تجري في سياق التهديد والوعيد للكفار بسبب أفعالهم القبيحة.

-علاقة ختام الآية بمضمونها:

إذا كانت هناك مناسبة قوية بين علاقة الآية محل الاستشهاد بسياقها، فإن هناك مناسبة قوية كذلك بين ختام الآية قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾وبـين مضـمونها، فقولـه تعـالى فـي مطلـع الآيـة: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ ﴾فيـــه تهديـــد "للمشـركين علـى تماديهم فـي الباطـل، واغتـرارهم بالـدنيا (...) وكـذلك قولـه : ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ أى هكــذا تمــادى فــى شـركهم أسـلافهم

---

(١) البحر المحيط، ٥٢٧/٦.

ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلُّوا فيما هم فيه من العذاب والنكال"(١).

فهذا الهلاك الذي حلَّ بالمشركين إنما هو بسبب ظلمهم لأنفسهم، وبسبب عنادهم واستكبارهم، ومن ثم كان التعقيب على هذا الهلاك الذي طوي في السياق والذي دل عليه ما قبله، ودل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ ﴾، فختام الآية بهذا الختام يدل على أن هناك كفرًا وعنادًا من المشركين، وأن هناك إصرارًا على هذا الكفر ، وأن هناك تكذيبًا ومداومة على هذا التكذيب، ومن ثم كان هناك هلاكًا واستئصالًا، كل ذلك نادى على هذا الختام.

-مناسبة ختام الآية بما جاء بعدها:

ثم هناك – أيضًا– صلة قوية بين ختام الآية بنفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ وإثباته للمكذِّبين وبين ما جاء بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤ ﴾(النحل: ٣٤)، والمعني: "فأصاب هؤلاء الذين فعلوا من الأمم الماضية فِعل هؤلاء المشركين من قريش سيئات ما عملوا، يعني عقوبات ذنوبهم، ونقم معاصيه التي اكتسبوها ، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤٨ ﴾ (الزمر: ٤٨)، يقول: وحل بهم من عذاب الله ما كانوا يستهزئون منه ويسخرون عند إنذارهم ذلك رسل الله ونزل ذلك بهم دون غيرهم من أهل الإيمان بالله"(٢).

(١) تفسير ابن كثير ، ٥٦٨/٢.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، م٧، ٧١/١٤، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

ومن ثم فعلاقة قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ ...﴾بختام الآية ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، علاقة بيان وتوضيح وكشف وجلاء لكيفية ظلمهم لأنفسهم، وكيف أنهم ظلموا أنفسهم بأعمالهم القبيحة ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ وباستهزائهم وعنادهم ، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الأمر الذي يؤكد نسبة الظُّلم إليهم وينفيه عن الله ـ تعالى ـ .

إن اقتران قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بما جاء بعده ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ...﴾ يصعِّد نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ ويقوِّي نسبته إلى المكذِّبين، ومن ثمَّ تبدو العلاقة واضحة بين ختام الآية وما جاء بعدها الأمر الذي يشهد لسمو بلاغة القرآن العظيم بمتانة التماسك وقوة التلاحم في نظمه.

-أسرار ودقائق في نظم الختام:

الذي يلفت النظر في هذا الختام ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، أنه عدل عن النسق المعتاد عندما ينفي الظُّلم عن الله – تعالى- ويثبته للمكذِّبين، إذ المعتاد أن يقول : ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بتصعيد النفي وتأكيده بالتعبير بفعل الكينونة "كان"، وبلام الجحود والفعل المضارع الدال على تجدد النفي واستمراره "ليظلمهم"، فلماذا عبر عنه بالأصل في النفي دون تصعيد أو تأكيد في النظم؟ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، لم أقرأ سر هذه المخالفة في النظم فيما اطلعت عليه من مراجع لأهل العلم، ويبدو ـ والله تعالى أعلم بأسرار كتابه ـ أن مرجع التعبير بالأصل مجرد نفي الظُّلم عن الله – تعالى ـ في هذا السياق مرده إلى أن العمدة هنا هو تأكيد نسبة الظُّلم للمكذِّبين، واستمرارهم فيه، وإصرارهم عليه؛ ليكون ذلك أبلغ في تهديد المشركين وأعلى في ردعهم عن

التكذيب وحث لهم على الامتثال والطاعة، وهذا هو ما يلمح وراء التشبيه في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ فمدار التشبيه على مساواة كفار قريش للكافرين في الكفر والعناد، وكذلك في بيان منتهى ظلمهم لأنفسهم، فمدار التشبيه على بيان التلاؤم بين كفار قريش والأمم السابقة من المكذِّبين في قوة ظلمهم لأنفسهم، وهذا ما يؤكده ـ أيضًا ـ اقتران ظلمهم لأنفسهم ببيان سببه ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

ثم إن قوله تعالى : ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ ﴾ بهذه الإضافة لضمير الرسول (ﷺ) والتي تدل على منتهى التلطف برسول الله (ﷺ) والتسلية له بسبب تكذيب المشركين، ثم تفتح سرًّا آخر من أسرار مخالفة النسق في هذا الختام ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ حيث تكشف عن مدى حرص رسول الله (ﷺ) على هداية قومه، وأنه قد بذل في ذلك غاية جهده، وأنهم هم الذين يبذلون كل جهد في محاربة الدعوة، واستمرارهم على الكفر، فتصويرًا لبيان هذا الحرص من جانب الرسول (ﷺ) على هداية قومه، وكشفًا لزيادة عناد المشركين وتماديهم في الضلال، جاء التعبير على أصله في نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ دون تصعيد، وجاء مصعدًّا إثبات الظُّلم معهم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾.

السياق السادس: سياق التضييق على اليهود بتحريم الطيبات لظلمهم لأنفسهم:

وفي هذا السياق الذي يكشف عن قبائح اليهود وافترائهم الكذب على الله – تعالى– في التحليل والتحريم ، ومعاقبة الله ـ تعالى ـ لهم بالتضييق والحرمان، يأتي نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ وإثباته لهم بطريق الوكادة في ختام الآية ، قال

تعـــــالى ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨ ﴾(النحل : ١١٨).

-وجه المناسبة بين هذه الآية وما قبلها:

الملاحظ أن الآيات السابقة ذكر فيها ما أحله الله . تعالى . لأهل الإسلام، وما حرَّمه عليهم، وفي هذه الآية ذكر ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم وتجاوزهم الحد في الكذب والافتراء، و "لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وإنما أرخص فيه عند الضرورة . وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى . ذكر . سبحانه وتعالى . ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج، فقال:" وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل" أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦ ﴾ (الأنعام: ١٤٦)، ولهذا قال ههنا: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ ﴾أي فيما ضيقنا عليهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أي فاستحقوا ذلك ، كقوله : ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ ﴾ (النساء: ١٦٠) [١].

(١) تفسير ابن كثير، ٢/٥٩٠.

-علاقة ختام الآية بمضمونها:

إن العلاقة وثيقة والرابطة بين ختام الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ قوية واضحة ، فهذا الختام يكشف عن سر هذا التضييق بالتحريم الذي وقع على اليهود في الطيبات وتبين عن علته، وهو أنه كان جزاء وفاقًا لتماديهم في الظُّلم والمعاصي، فكان الجزاء استحقاقًا لهم، فهذا الختام ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾يعني: أن ظلمهم لأنفسهم وإصرارهم عليه، وتماديهم فيه وافتراؤهم على الله الكذب بتحليل ما حرم الله هو الذي استوجب له العقوبة بالتضييق والحرمان من الطيبات التي كانت أحلت لهم وبذلك تظهر قوة المناسبة بين مضمون الآية وختامها.

كما أن هذا الختام ـ أيضًا ـ فيه "تنبيه على الفرق بينهم ـ أهل الإسلام ـ وبين غيرهم ـ اليهود في التحريم، وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة"(١).

-علاقة هذا الختام بسياق السورة:

المتأمل في سياق سورة النحل يجد ما يؤكد هذا الختام ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ نفي الظُّلم عن الله – تعالى– وإثباته للمكذِّبين، ألم يقل الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ....﴾ (النحل: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ ... كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النحل: ٣٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم .... ﴾(النحل: ٦١)، ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً

(١) روح المعاني ، ٧/٤٨٢.

كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾(النحل:١١١) وقوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (النحل:١١٣).

أليس في هذا السياق ما يؤكد نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ ويؤكد نسبته إلى الكافرين؟

ثم أليس في نفي الظلم عن الله تعالى– في هذا الختام ما يرسخ مبدأ العدل الذي أمر الله ـ تعالى ـ به في السورة نفسها، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ..﴾(النحل: ٩٠)؟

ثم أليس علاقة هذا الختام بما جاء بعده قوية كذلك ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾ ﴾ (النحل: ١١٩)؛ حيث "بين أن الافتراء على الله ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة"(١)؟

ثم أليس في ختام السورة ما يدفع إلى العدل والإحسان ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (النحل: ١٢٦)؟

إن هذا الختام ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ يتلاءم تمام التلاؤم مع سياق سورة النحل ويقرر مضمونه ويؤكده ولا يشذ عنه.

ثم ألا يتناسب هذا الختام ـ أيضًا ـ مع ما سبق أن قررته سورة الأنعام من أن سبب التضييق على اليهود في التحليل والتحريم إنما هو بسبب بغيهم

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري على هامش الطبري، م٧، ١٢٩/١٤.

وجرمهم، فكان ذلك عقابًا لهم، قال ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٦)، وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ (النساء: ١٦٠)؟

-من أسرار التنوع في هذا الختام:

إن هذا الختام الذي جاء في هذه الآية ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لا يختلف مع الختام الذي ذكر في الآية السابقة ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾إلا في نفي الظُّلم عن الله –تعالى–؛ حيث أسند هناك إلى لفظ الجلالة الذي يدل على الكمال المطلق (الله)، وهنا أسند إلى ضمير العظمة (نا) (ظلمناهم)، فهل وراء هذا التنوع في الإسناد بين الإسناد إلى رسم الجلالة (الله) وبين الإسناد إلى ضمير العظمة (نا) من دقائق؟

إن من يتأمل النظم هنا يرى أن ضمير العظمة يهيمن على نظم الأفعال في الآية "حرمنا" "قصصنا"، فمجيء نفي الظُّلم هنا مسندًا إلى ضمير العظمة فيه تمام المناسبة بينه وبين ما سبقه من أفعال هذا من ناحية التناسب الشكلي.

ومن ناحية المعني، فإن هذا الإسناد يضفي على التحريم والقص جلالًا وتعظيمًا ومهابة، ويضفي كذلك على الظُّلم تبشيعاً وقبحًا وإنكارًا، كما يضفي على نفي الظُّلم عن ضمير العظمة والجلال قوة وتوثيقًا، إذ الظُّلم يتنافى مع

عظمة الله . تعالى . وجلاله ومهابته ، فـ "أشد طرق التأكيد أثرًا تفخيم المعنى بإسناده إلى ضمير العظمة"(١).

المسلك الآخر: **نفي الظلم عن الله ـ تعالى ـ دون إثباته لغيره**

وقد جاء هذا المسلك على ثلاثة محاور:

المحور الأول: نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى– وقد جاء ذلك في سياقين:

السياق الأول: سياق نفي تسوية أهل الإيمان وأهل الكفر في الآخرة نعيمًا وعذابًا:

في سياق تباين حال الفريقين أهل الطاعة والإيمان، وأهل الكفر والعصيان في الجزاء في الآخرة يأتي نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى– في ختام الآيات؛ لبيان أن هذا هو الجزاء العادل، وليس فيه ظلم من قبل الله . تعالى . : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٨).

–فقه سياق هذا الختام:

هذا الختام يقع تعقيبًا على ما سبق في الآيات من تنوع جزاء حال أهل الإيمان وجزاء أهل الكفر، وعدم التسوية بينهما، فبينهما تباين عظيم، ومفاضلة ظاهرة في هذا الجزاء، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٦: ١٠٨).

---

(١) من روائع الإعجاز (تعبير الحق عن ذاته)، عز الدين على السيد، ص ٣٢، عالم الكتب، ط٢، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.

يقول الطبري مبينًّا وجه ارتباط هذا الختام بما قبله، وموضحًا معناه: "يعني بقول . جل ثناؤه . ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ هذه آيات الله ...وقوله:(آيات الله) يعني مواعظ الله وعبره وحججه (نتلوهاعليك) نقرؤها عليك ونقصها(بالحق) يعني بالصدق واليقين، وإنما يعني بقوله:(تلك آيات الله) هذه الآيات التي ذكر فيها أمور المؤمنين من أنصار الرسول (ﷺ) وأمور يهود بني إسرائيل وأهل الكتاب، وما هو فاعل بأهل الوفاء بعده، وبالمبدلين لدينه والناقضين عهده بعد الإقرار به، ثم أخبر . عز وجل . نبيه محمدا (ﷺ) أنه يتلو عليه بالحق، وأعلمه أن من عاقبه من خلقه بما أخبر أنه معاقبه من تسويد وجهة وتخليد في أليم عذابه، وعظيم عقابه، ومن جازاه منهم بما جازاه من تبيض وجهه وتكريمه وتشريف منزلته لديه بتخليده في دائم نعيمه فبغير ظلم منه لفريق منهم، بل لحق استوجبوه وأعمال لهم سلفت جازاهم عليها، فقال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني بذلك، وليس الله يا محمد: بتسويد وجوه هؤلاء، وإذاقتهم العذاب العظيم، وتبيض وجوه هؤلاء ، وتنعيمه إياهم في جنته، طالبًا وضع شيء مما فعل من ذلك في غير موضعه الذي هو موضعه إعلامًا بذلك عباده أنه لن يصلح في حكمته بخلقه ما غير ما وعد أهل طاعته والإيمان به، وغير ما أوعد أهل معصيته والكفر به وإنذار منه هؤلاء وتبشيرًا منه هؤلاء"(١).

فالطبري يشير إلى أن من مقتضي نفي إرادة الظُّلم عن الله . تعالى . الذى يعني إقامة العدل بين الخلائق أن يكون هناك تباين في المصير والجزاء بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وأن يكون هناك إنذار شديد لأهل المعصية، وتبشير عظيم

(١) جامع البيان، م٣، ٣/٢٨.

لأهل الطاعة، ومن ثم يتجلّى علاقة هذا الختام ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بمضمون ما سبق وتظهر قوة المناسبة بينهما.

-من أسرار النظم في هذا الختام:

من يتأمل في نظم هذا الختام ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ويتفرس دقائقه يرى أنه قد جاء في غاية الدقة والإحكام الأمر الذي يشهد لنظم القرآن الكريم بالتفرد والإتقان، فقد صيغ صياغة مؤكدة تقرر ما سبق من تباين حال الفريقين في الآخرة على أبلغ وجه، وتنفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ وتصعده، وقد جلَّى هذه الخصائص التي تم بها المبالغة في النفي وحققت هذا التصعيد، أبو السعود؛ حيث يقول:"﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده، فإن تنكير الظُّلم، وتوجيه النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بآحاد الجمع المعرف، والالتفات إلى الاسم الجليل إشعارًا بعلة الحكم لبيان كمال نزاهته ـ عزوجل ـ عن الظُّلم بما لا مزيد عليه، أي ما يريد فردًا من أفراد الظُّلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلًا عن أن يظلمهم ، فإن المضارع كما يفيد الاستمرار في الإثبات يفيده في النفي بحسب المقام، كما أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت وعند دخول النفي تدل على دوام الانتفاء " لاعلى انتفاء الدوام"(١).

هذه الخصائص التي ذكرها أبو السعود في بنية هذا الختام ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ تصعد نفي الظُّلم عن الله – تعالى- هنا وتؤكده ، كما يتجاوب مع هذه الخصائص ـ أيضًا ـ مجيء النفي بالأداة "ما" التي تعني في هذ السياق استمرارية نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى- وتؤكد هذا النفي.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/٧٠.

ثم إن مجيء الفاصلة "العالمين" . أيضًا . فضلًا عن أن لها نظائر في فواصل السورة ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ (آل عمران: ٣٣)، ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ ﴾(آل عمران:٤٢)، ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ ﴾ (آل عمران: ٩٦)، ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧ ﴾ (آل عمران: ٩٧)، بجانب هذا الحضور لهذه الفاصلة في سياق سورة آل عمران، فإن مجيئها بهذا التعميم يقوِّي جانب نفي إرادة الظُّلم عن الله . تعالى . في هذا السياق . أيضًا ..

–تصعيد نفي إرادة الظلم عن الله . تعالى . بالتذييل اللاحق :

ومما يلاحظ كذلك هنا أن النظم القرآني لم يكتف بنفي الظُّلم عن الله – تعالى– بهذا الختام ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وإنما أتبع تصعيد نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بتذييل آخر يترقى بهذا التصعيد ويقرره ويؤكده، وذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩ ﴾ (آل عمران: ١٠٩)، وذلك من حيث إن "الظالم إنما يظلم غيره ليزداد إلى عزَّته عِزَّة بظُلمه إيَّاه، وإلى سلطانه سلطانًا، وإلى ملكه ملكًا؛ لنقصان في بعض أسبابه يتمِّم بما ظلم غيره فيه ما كان ناقصًا من أسبابه عن التمام، فأما من كان له

جميع ما بين أقطار المشارق والمغارب، وما في الدنيا والآخرة، فلا معنى لظلمه أحدًا"(١).

–ما سر هذا التصعيد في نفي إرادة الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ؟

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو ما الداعي إلى تصعيد نفي إرادة الظلم عن الله ـ تعالى ـ في هذا الختام﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، وما أسباب الترقي في هذا النفي بهذا التعقيب ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩ ﴾؟

إن التأمل في السياق يهدينا إلى سر هذا التصعيد في النفي؛ فإنه ـ سبحانه ـ لما شددَّ في وعيد الكفار وصعد عذابهم؛ حيث جمع لهم بين الألم النفسي والألم الجسدي في العذاب ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ ﴾ ، حيث الاستفهام الإنكاري التوبيخي "أكفرتم" ثم أمر الإهانة والتهكم من فعل الذوق "فذوقوا العذاب" وإذاقة العذاب مقدمة للأقل من العذاب فكيف بكثيره؟

وكذلك لما ترقي في نعيم أهل الإيمان ﴿ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، تأمل المجاز المرسل الذي علاقته الحالية "في رحمة" الذي يدل على استغراقهم في هذه الرحمة واستقرارهم فيها وشمولها لهم، ثم إضافة هذه الرحمة إلى صاحب العزة والكمال "الله" ألا تخلع هذه الإضافة عليهم نعيمًا وعزًّا؟

ثم إن استقرارهم في هذه الرحمة لا ينقطع وإنما يدوم ويستمر ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ – إنه سبحانه – لما صعد عذاب الكافرين، وعلَّى جزاء المؤمنين،

(١) تفسير الطبري ، م٣، ٢٨/٣.

ناسب ذلك أن يصعِّد نفي إرادة الظُّلم عن الله . تعالى . فهذا من مقابلة التصعيد بالتصعيد.

وقد ألمح الرازي إلى شيء من هذا عندما قال: "إنما حسُن ذكر الظلم ها هنا، لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة، وهو . سبحانه وتعالى . أكرم الأكرمين، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك وقال إنهم ما وقعوا فيه إلا بسبب أفعالهم المنكَرَة، فإن مصالح العالم لا تستقيم إلا بتهديد المذنبين، وإذا حصل هذا التهديد فلابد من التحقيق دفعًا للكذب، فصار هذا الاعتذار من أدلِّ الدلائل على أن جانب الرحمة غالب، ونظيره قوله تعالى في سورة (النبأ) بعد أن ذكر وعيد الكفار ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ ﴾ (النبأ: ٢٧، ٢٨) أي: هذا الوعيد الشديد إنما حصل بسبب هذه الأفعال المنكرة"(١).

ثم إنَّ نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بهذه الوكادة، وبهذا التقرير يوقفنا من وجه آخر على بيان منتهى ظلم الكافرين لأنفسهم، ففي هذا النفي تعريض بأن الكافرين هم الذين بلغوا في الظُّلم منتهاه، وذلك بسبب كفرهم بهذه الآيات البينات الواضحات التي بلغت غاية التعظيم والتشريف ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾، وبذلك يتحقق ضرب من التناسب بين وكادة نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالي– ووكادة إثباته للكافرين "ففي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٢)".

(١) تفسير الرازي، ٨/٣٢١.

(٢) تفسير أبي السعود، ٢/٧٠.

ثم إن من دواعي هذا التصعيد في نسق هذا الختام . أيضًا . هو زيادة الحث والتحريض على الاستجابة لما طُلب من المؤمنين واجتناب ما نهوا عنه . أيضًا . في السياق السابق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾(آل عمران: ١٠٢)، ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ .... ﴾(آل عمران: ١٠٥).

ثم إن نفي إرادة الظُّلم بطريق الأبلغية هنا . أيضًا . يبعث السرور والبهجة في نفوس المؤمنين فيجدُّوا ويجتهدوا في الطاعة ، ويبعث الرعب والخوف كذلك في نفوس الكافرين فيكون ذلك أدعي إلى التحذير واجتناب المعاصي، فسبحان من أحكم نظم كلامه هذه الإحكام.

السياق الثاني: سياق تخويف مؤمن آل فرعون قومه وتحذيرهم من مصير الأمم المكذِّبة:

هذا هو السياق الثاني والأخير الذي يأتي فيه نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى– وهو سياق تخويف مؤمن آل فرعون قومه وتحذيرهم من مصير الأمم المكذِّبة إن هم أصروا على الكفر والعناد، والتطاول على رسل الله – تعالى–، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ (غافر : ٣٠، ٣١).

- سر المناسبة بين ختام الآية ومضمونها:

تبدو المناسبة بين ختام الآية بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ومضمونها واضحة، فهؤلاء الذين كذبوا الرسل، وأصروا على الكفر والعناد أهلكهم الله . تعالى . ولم يظلمهم بهذا الهلاك، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم وعصيانهم، فقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ فيه دلالة "على أنه . تعالى . إنما أهلك الأحزاب المتقدمين لذنب استحقوا به الهلاك، وهو تحزبهم على أنبيائهم، فكل من كذب نبيه وتعرض له بالسوء يخاف عليه مثل ما أصاب هؤلاء، لأن تخلية الظالم من غير انتقام ظلم بالمظلوم، والله تعالى منزه عن إرادة الظلم فضلًا عن نفس الظُّلم، والمعني ما يريد الله أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب" (١).

كما أن مجيء هذا الختام ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ بعد هلاك هذه الأمم المكذبة "فيه دلالة واضحة على شدة العذاب وبشاعته وألمه، وأن هذا الذي نزل بهم لم يكن من جهة أن الله لم يظلمهم، أو يريد ظلمهم، أو يريد ظلم أحد من العباد، وإنما هو من جُرم أخطائهم وبشاعة سلوكهم، وليس في البشاعة أبشع من رد الدليل المبين، ولم يرتكب الإنسان خطأ أفدح من مدافعة الحق ومحاربته وإقصائه والانتصار للكذب وللباطل وتقويته" (٢).

---

(١) حاشية شيخ زادة، ٤/٢٣٢.

(٢) آل حم . غافر . فصلت (دراسة في أسرار البيان)، دكتور/ محمد محمد أبو موسي ، ص ١٢١، ١٢٢، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٩م.

-من أسرار النظم في بناء هذا الختام:

هـذا الختـام ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعِبَادِ ﴾ يلتقـي فـي البنـاء وفـي التشكيل وفي الخصائص مع الختام الذي سبق في الموضع الأول ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وذلك ما عدا الفاصلة، فهناك (للعالمين)، وهنا "العباد"، وسوف نعرف سر ذلك.

حيث أوثر أداة النفي "ما" التي تدل على استمرارية النفي وتحققه في جميع الأزمنة، فالنفي هنا للاستمرار ، وهو معنى من معاني النفي بـ "ما"(١) ثم التعبير بلفظ الجلالة "الله" الذي يدل على الكمال المطلق، ومن صفات كماله أنه يأبي الظلم ولا يرضاه لعباده، كما أن التعبير بلفظ الجلالة "لله" يتناسب مع مقام التخويف والتهديد، كما يتردد كثيرًا في سياق هذه السورة.

ثم إن تقديم لفظ الجلالة "الله" ووقوعه بعد أداة النفي على المسند الفعلي "يريد" وهو يدل على القصر كما ذكر الإمام عبدالقاهر(٢)أي قصر نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى– وإثباتها للمكذِّبين للرسل، ومن الفروق التي ذكرها عبد القاهر بين تقديم الفعل في إطار النفي وتقديم الفاعل، أنه في حال تقديم الفعل يصح أن يكون المنفيُّ عامًا، وذلك بخلاف تقديم الفاعل؛ حيث يقول : "ومن أجل ذلك – أى من أجل هذه الفروق بين تقديم الفعل وتقديم الفاعل . صَلَح في الوجه الأول أن يكون المنفيُّ عامًا كقولك : "ما قلت شعرًا قط" ، و "ما أكلت اليوم شيئًا" و "ما رأيت أحدًا من الناس"، ولم يصلح في الوجه الثاني، فكان خلفًا أن تقول: "ما أنا قلت شعرًا قط" و "ما أنا أكلت اليوم شيئًا" و "ما أنا رأيت أحدًا

(١) ينظر: معاني النحو: ١٩٢/٤.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ، ص١٢٤.

من الناس"، وهو أن يكون ههنا إنسان قد قال كلَّ شعرٍ في الدنيا، وأكل كلَّ شيء يؤكل، ورأى كل أحد من الناس، فنفيت أن تكونه"(١).

فعبد القاهر يبين أنه في حالة تقديم الفعل يصح أن يكون المنفي عامًا فيصح أن تقول: "ما قلت شعرًا"؛ وذلك لأن هذا التقديم لا يقتضي إلا نفي الفعل عن الفاعل، وأما ثبوت الفعل أو إثباته للغير فلا يقتضيه ولا يُشعر به(٢).

وما قرره عبدالقاهر في تقديم المسند إليه المنفي على الخبر الفعلي لا يتلاءم مع بناء خاتمة الآية، ويحتاج إلى مراجعة .

ثم مجيء فعل الإرادة مضارعًا (يريد) يدل على تجدد نفي هذه الإرادة واستمرارها، ثم تنكير "ظلمًا" وهو يفيد التعميم، أي: أي ظلم كان قليلًا أم كثيرًا، الأمر الذي يدل على كمال نزاهته . عزوجل ..

ثم إن انصباب النفي هنا على إرادة الظُّلم دون تسليطه على الفعل نفسه، وهذا أبلغ؛ لأنه اذا انتفت الإرادة والقصد والعزيمة على الظُّلم انتفى الظُّلم من أصله و "من كان عن إرادة الظلم بعيدًا كان عن الظلم نفسه أبعد"(٣).

ثم إن إيثار التعبير بهذا الجمع "عباد" دون "عبيد" هنا فيه تناسب من الناحية الإيقاعية مع الفواصل التي قبله والتى بعده ؛ حيث تختتم بحرف المد "الألف" قبل حرف الروي "يوم الأحزاب" وبعدها "التناد".

كما أن هذه الفاصلة تتناسب وتتحد كذلك مع ما ورد من فواصل مماثلة في السورة؛ حيث تتكرر فاصلة "عباد" ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ

(١) دلائل الإعجاز ، ص١٢٤.

(٢) دراسات تفصيلية شاملة بلاغة عبدالقاهر، عبدالهادي العدل، ص ٢٦٦، المطبعة المنيرية، ط الثانية، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.

(٣) روح المعاني ، ٣٢٠/١٢.

وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾(غافر:٤٤)،﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾(غافر: ٤٨)، وتتلاءم هذه الفاصلة كذلك مع سياقها، إذا إن منهج القرآن الكريم في استعماله لهذا الجمع "عباد" جمع "عبد" دون جمع "عبيد" يكون في "مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن"[(١)].

وهذا أنسب بهذا السياق الذي يتحدث فيه النظم القرآني عن تطاول المكذِّبين على رسل الله ، وعزمهم على قتلهم وتعذيبهم، تأمل: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (غافر :٥)، وقوله في شأن موسي . عليه السلام . وقومه﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ (غافر: ٢٣: ٢٥)، ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (غافر: ٢٦)، ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ

(١) المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيه، تحقيق/ عبدالسلام عبدالشافي محمد ، ٤٦١/١، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ ﴾(غافر: ٢٨)، فالمقصود من ذلك كله هو الانتصار لرسل الله . تعالى . ولموسي . عليه السلام . من فرعون ، ولمؤمن آل فرعون، فكان المناسب لذلك التعبير بما يدل على الشرف والعزة لعباد الله – تعالى– وكان أخذًا وانتصارًا للمظلوم "عباد الله" من الظَّالم "المكذِّبين"، يقول البقاعي :" "للعباد"، لأن أحدًا لا يتوجه أبدًا إلى أنه يظلم عبيده الذين هم تحت قهره، وطوع مشيئته وأمره، ومتى لم يعرفوا حقه وأرادوا البغي على من يعرف حقه عاقبهم ولابد، وإلا كان كفه عنهم ظلمًا للمبغى عليهم"(١).

فقد وقعت فاصلة "للعباد"في سياقها المناسب هنا، كما وقعت "للعالمين" هناك كذلك.

–سر تصعيد نفي إرادة الظُّلم هنا:

إذا كان وراء تصعيد العذاب في الموضع السابق أسرار ودقائق فإن وراء نفي إرادة الظُّلم هنا عن الله – تعالى– أسرار ودقائق كذلك؛ حيث يبدو – والله تعالى أعلم– أنه – تعالى . لما عدَّد هذه الأمم المكذِّبة وما ترتب على تكذيبهم وكفرهم من عذاب شديد ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ... ﴾، تأمل جمع "الأحزاب" ، وتأمل التعميم بعد التخصيص ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ...﴾، فإن كذلك يدل على كثرة من أهلكهم الله – تعالى– فكان من المناسب نفي إرادة الظُّلم عن الله . تعالى . في هذا السياق.

---

(١) نظم الدرر ، ٦٠/١٧.

كما أن السياق السابق ينادي على تصعيد نفي إرادة الظُّلم عن الله – تعالى– فقد جاء في سياق السورة ما يدل على شدة عقابه للمجرمين ، وتهويل شأنه، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾﴿... إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾(غافر: ٢٢).

كما أن جمع مؤمن آل فرعون في تحذير قومه بين عقابي الدنيا ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾، وعقاب الآخرة ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (غافر: ٣٢) مما يدل على شدة عذابهم وقوة عقابهم، وهذا ينادي على تصعيد نفي الظُّلم عن الله . تعالى . .

كما أن هذا التصعيد في نفي الظُّلم عن الله – تعالى– يتناسب تمام التناسب مع إثباته للمكذِّبين بالطريق الأبلغ كذلك، فإن هذا التصعيد في الإثبات يدل على منتهى ظلم المكذبين للرسل . عليهم السلام . وذلك برد دعوتهم، ومحاولة التجرؤ على قتلهم.

أن هذا التصعيد يتلاءم كذلك مع من كان السياق معهم؛ حيث يبرز مكانة الرسل أولًا، كما يبرز مكانة العبد المؤمن "مؤمن آل فرعون"، وبذل أقصى غايته في هداية قومه، وعدم استجابتهم له بعد أن نفذ صبره معهم وحرصه على هدايتهم.

المحور الثاني: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بصيغة المبالغة مقيدًا بـ"العبيد"، وقد جاء ذلك في سياقين:

السياق الأول: سياق تسلية النبي (ﷺ) وحثِّه على الصبر في مقابل تطاول أهل الكفر والضلال:

في سياق تسلية النبي (ﷺ) وحثِّه على الصبر في مقابل تطاول أهل الكفر والضلال، قال تعالى:﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(فصلت: ٤٦).

-فقه مناسبة الآية:

هذه الآية جاءت في سورة فصلت، وسورة فصلت تحدثت بالتفصيل عن حال أهل الكفر والعصيان، وحال أهل الطاعة والإيمان، وعلت نبرة التهديد والوعيد لأهل الكفر، وصعدت الرحمة والبشارة لأهل الإيمان والاستقامة، ثم بعد ذلك انعطف السياق على تسلية النبي (ﷺ) بسبب كفر المعاندين بالذكر ، وخاطبه (ﷺ) بقوله تعالى مسليًا إياه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ.... ﴾(فصلت : ٤٣)، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ .... ﴾(فصلت: ٤٥)، ثم أتي بعد ذلك ما يصعِّد هذه التسلية: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ إذ المعني: "خفِّف على نفسك إعراضهم، فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانه يعود عليهم، والله – سبحانه– يوصل كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾"(١).ومما يلاحظ كذلك أن سياق السورة يقيم المفاضلة بين حال

---

(١) تفسير الرازي، ٥٧٠/٢٧.

أهل الكفر وأهل الإيمان وتنوع جزاؤهما لتنوع أعمالهما، ثم انتقل من هذا الخصوص إلى العموم فجعل ذلك قانونًا عامًا، وقد ابتدأ الآية محل الاستشهاد بهذا التعميم؛ حيث عبر باسم الموصول ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ﴾.

ثم ترى النظم القرآني لا يكتفي بهذا القانون العام "العدل" الذي تجسد في نفي التسوية بين المحسن والمسيء في الجزاء وإنما يتصاعد بهذا القانون العام "العدل" ويؤكده بهذا الختام الذي ينفي الظُّلم بصيغة الأبلغية عن الربوبية ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ﴾.

-من الأسرار البلاغية في نظم هذا الختام:

إنَّ في نظم هذا الختام ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ﴾ من الأسرار والدقائق ما يحتاج إلى بيان وأول هذه الخصائص أن نفي الظُّلم هنا عن الله – تعالى- قد جاء بأداة النفي "ما" وهي هنا صالحة للدلالة على استمرارية هذا النفي في جميع الأزمان، فنفي الظُّلم هنا عن الله – تعالى- حقيقة ثابتة دائمةً في الماضي والحال والاستقبال.

ثم التعبير بلفظ الربوبية "ربك" وهذا التعبير نادى عليه سياق السورة ومقصدها، فقد ذكر لفظ "الرحمن الرحيم" ، وقوله : ﴿ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢ ﴾ (فصلت: ٣٢)، وتكرر فيها لفظ الربوبية كثيرًا ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (فصلت:٩)، ﴿ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا ﴾ (فصلت: ١٤)، ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ ﴾(فصلت: ٢٩)،﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾(فصلت:٣٠)،﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ ﴾ (فصلت: ٤٥)،﴿ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾(فصلت:٥٠)، ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ ﴾

(فصلت: ٥٣)، ﴿ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ ﴾ (فصلت: ٥٤) فـ "لما كان لمقصد السورة نظر كبير إلى الرحمة كرر – سبحانه– وصف الربوبية فيها كثيرًا"(١).

ثم يتأكد نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بالباء الواقعة في خبر "ما" فما زيدت هذه الباء في خبر "ما" إلا لتؤكد نفي الظُّلم عن الله – تعالى– وهذا ينبيء عن منتهى عدله تعالى ورحمته.

ثم إن المنفي هنا ليس مجرد الظُّلم، وإنما عبر بصيغة المبالغة "ظلَّام"، ومجيء النظم القرآني بهذه الصيغة في النفي مما ينادي عليه التعبير بلفظ الربوبية هنا "وما ربك" فعطاؤه من التربية والإحسان والرحمة والإنعام مما لا يتلاءم مع الظُّلم قليله وكثيره.

كما أن هذه الصيغة تشعر بتبشيع هذا الظُّلم وتقبيح شأنه، وأنه لا يجوز، وأنه في درجة واحدة، وأن قليله بالنسبة لله ـ تعالى ـ ككثيره، يقول الطاهر : "وأما صيغة" ظلَّام المقتضية المبالغة في الظلم فهي معتبرة قبل دخول النفي على الجملة التي وقعت هي فيها كأنه قيل : ليعذب الله المسيء لكان ظلَّاما له، وما هو بظلَّام، وهذا معنى قول علماء المعاني: إن النفي إذا توجه إلى كلام مقيد قد يكون النفي نفيًا للقيد، وقد يكون القيد قيدًا في النفي ومثلوه بهذه الآية، وهذا استعمال دقيق في الكلام البليغ في نفي الوصف المصُوغ بصيغة المبالغة من تمام عدل الله ـ تعالى ـ أن جعل كل درجات الظُّلم في رتبة الظلم الشديد"(٢).

كما أن التعبير بصيغة "ظلاّم" هنا يشير إلى شدة عذاب الهالكين، وذلك بكثرة ذنوبهم، وعظيم استكبارهم وعنادهم، تأمل عذاب "عاد" ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ

---

(١) نظم الدرر، ١٧/٢١٠.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٤/٣١٤.

ﭐلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (فصلت: ١٦)، وقوم ثمود ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ (فصلت: ١٧)، وعذاب الكافرين ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فصلت:٢٧-٢٨)، ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ (فصلت: ٤٣)، وسياق فيه تفصيل عن شدة عذاب الكافرين وقسوته ينادى على نفي الظُّلم عن الله . تعالى . أدناه وأعلاه.

كما أن السياق يتحدث عن كثرة الهالكين من الأمم السابقة ومن جاء بعد من المكذبين، وهو سياق ينادي كذلك على نفي الظلم بهذه الصيغة "ظلاّم".

ويتلاءم كذلك مع تأكيد نفي الظُّلم عن الله – تعالى- هنا العدول في صيغة الجمع من "عباد" إلى "عبيد"، فقد عبر بـ "عبيد" دون "عباد"؛ "لأنه موضع إشفاق، وإعلام بضعف، وعدم قدرة على انتصار"[1]، فالتعبير بجمع "عبد" على "عبيد" يتجاوب مع نفي الظُّلم عن الله . تعالى . ويؤكده؛ إذ كيف يُظلم من هو في غاية الضعف والانكسار، فـ " ليس من المروءة أن توقع الظُّلم على الضعيف العاجز عن الانتصاف"[2].

-ما سر تنوع الختام هنا والختام في سورة "الجاثية"؟

مما يلاحظ أن الختام قد يتنوع مع أن المتحدث عنه واحد، فالختام هنا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾، والختام في سورة الجاثية ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ

(١) نظم الدرر ١٧/٢١٠.

(٢) آل . حم . غافر . فصلت، ص ٤٦٩.

﴿تُرۡجَعُونَ﴾(الآية: ١٥)، مع أن المتحدث عنه في الآيتين واحد﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، فعلام يدل هذا التنوع؟

إن هذا التنوع وراءه أسرار يومئ إليها السياق، فاختلاف السياق في السورتين هو الذي اقتضى هذا التنوع في الآيتين، فآية الجاثية جاءت خاتمتها ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأن قبل هذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾(الجاثية : ١٤)، فقد وصفهم الله في هذه الآية بإنكار البعث، فناسب الختام بفاصلة تدل على البعث، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾.

وأما الفاصلة الثانية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾فقد جاءت بعد ما يفيد أن الله – تعالى– لا يضيع عملًا صالحًا، ولا يزيد على من عمل سيئًا شيئًا ولهذا كان الختام بهذه الفاصلة مناسبًا[1].

فسبحانه من أحكم نظم كلامه هذا الإحكام.

السياق الثاني: سياق الحديث عن الحساب والجزاء:

وقد جاء في سياق الحديث عن الحساب والجزاء، قوله تعالى : ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ (ق: ٢٩).

---

(١) ينظر: الفاصلة القرآنية (من أسرار التعبير في القرآن) ، ص١٥٠، وينظر: البرهان في علوم القرآن، ٨٧/١.

-فقه المناسبة بين ختام الآية وما سبقها:

إن نفي الظُّلم هنا عن الله ـ تعالى ـ بصيغة المبالغة "ظلاّم" مقيدًا بـ "العبيد" يرتبط بما قبله ارتباطًا وثيقًا فما قبله يمهِّد لهذا الختام ويقوِّي ارتباطه به؛ حيث إنه "لما جرت مقاولة التخاصم بين الكافر وقرينه، ونهاهم الله عن التخاصم لديه، أي في دار الجزاء وموقف الحساب، فقال لا تختصموا لدي عالمين بأنه لا فائدة فيه حيث تعلمون أني أوعدتكم على الكفر والطغيان في دار العمل والتكليف ولم تلقوا إليه سمعًا، ولا رفعتم إليه رأسًا علل عدم كون التخاصم مفيدًا بأن قال على طريق الاستئناف ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي ما يبدل ما قدمته من الوعيد في حق كل كفار عنيد بالعفو عنهم، بل أنتم منهم بإخلادهم في النار، وعطف عليه قوله: "وما أنا بظلام للعبيد" بصيغة المبالغة، والمعني لو عذبت عبدًا ضعيفًا منقادًا لأمري غير مستحق للتعذيب من قبلي لكان ذلك غاية الظُّلم ولست بظلام فأعذب من ليس لي تعذيبه"(١).

فقوله تعالى في ختام الآية: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾"وارد لتحقيق الحق على الوجه الكلي وتبين أن عدم تبديل القول وتحقيق موجب الوعيد ليس من جهته تعالى من غير استحقاق له منهم، بل إنما ذلك بما صدر عنهم من الجنايات الموجبة له حسبما أشير إليه آنفًا، أي وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم"(٢).

-من أسرار النظم في ختام الآية:

أول ما يلاحظ في هذا الختام ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أنه قدَّم المسند إليه في إطار النفي "وما أنا" على الخبر الفعلي "بظلام للعبيد"، وهذا التقديم

(١) حاشية شيخ زادة، ٣٨٤/٤.

(٢) تفسير أبي السعود، ١٣١/٨، ١٣٢.　　　(٣) دلائل الإعجاز،ص١٢٤.

يرتبط بإذا ما كان النفي يفيد الاستمرار ، ففي هذه الحالة يفيد التقديم القصر، وقد أشار إلى ذلك عبدالقاهر بقوله : "إذا قلت : "ما فعلت"، كنت نفيت عنك فعلًا لم يثبت أنه مفعول وإذا قلت : "ما أنا فعلت"، كنت قد نفيت عنك فعلًا يثبت أنه مفعول .

تفسير ذلك: أنك إذا قلت : "ما قلت هذا"، كنت قد نفيت أن تكون قد قلت ذاك، وكنت نوظرت في شيء لم يثبت أنه مقول؟

وإذا قلت: "ما أنا قلت هذا"، كنت نفيت أن تكون القائل له، وكانت المناظرة في شيء تثبت أنه مقول. وكذلك إذا قلت: "ما ضربت زيدًا"، كنت نفيت عنك ضربه، ولم يجب أن يكون قد ضُرب بل يجوز أن يكون ضربه غيرك، وأن لا يكون قد ضُرب أصلًا. وإذا قلت: "ما أنا ضربت زيدًا"، لم تقله إلا وزيُد مضروب، وكان القصد أن تنفي أن تكون أنت الضارب" (٣)، وكذلك يلتقى في خصائص البناء مع خصائص البناء في ختام الآية السابقة ؛ حيث النفي بـ "ما" التى تدل على استمرارية هذا النفي وتأكيده، ثم التعبير بصيغة المبالغة "ظلاَّم"، ثم تقييد هذا الظُّلم المنفي عن الله – تعالى– بكونه "للعبيد".

أما التنوع فيتمثل هنا في ضمير العظمة "أنا" وهناك كان التعبير بلفظ الربوبية المضاف إلى ضمير الرسول (ﷺ) "ربك" وقد وقفنا على سر هذا التعبير من خلال سياقه، وهنا كان التعبير بضمير العظمة "أنا" له أسرار ودقائق كذلك، فهذا التعبير يتناسب مع سياقه هنا ويتجاوب معه؛ حيث إن سياق السورة حافل بإسناد الأفعال إلى ضمير العظمة، تأمل: "قد علمنا" و"عندنا" "بنيناها" "مددناها" "وألقينا" "وأنبتنا" "ونزلنا" "أفعيينا" "خلقنا" "ونعلم" "ونحن أقرب إليه" "فكشفنا" "تقول" ، وهذا من قوة المناسبة بين الإسناد هنا ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾، وبين الإسناد في سياق السورة، ثم إن ضمير العظمة هنا ينادي عليه سياق تعظيم الله ـ تعالى ـ

وعلو شأنه، ومكانة منزلته، وذلك في سبيل الرد على هذا المشرك ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (ق: ٢٦).

ثم يأتي التعبير بصيغة "ظلَّام"، وإذا كان التعبير بها هناك له أسرار يرمي إليه السياق، فإن التعبير بهذه الصيغة في هذا السياق له أسراره . أيضًا . فإنه – سبحانه وتعالى– لما ذكر حال الكافر ونعته بما يدل على منتهى قبحه وطغيانه "كل كفار" "العنيد" "مناع للخير" "معتد" "مريب" "الذي جعل مع الله إلها آخر"، شددَّ له العذاب ليتناسب مع شدة قبحه وعظم جرمه ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (ق: ٢٤)، ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ فهذا ترق من العموم "جهنم" إلى الخصوص "عذاب الشديد" ، فإن هذا التصعيد في العذاب الذي يتناسب مع عِظَم جرمه نادى علي نفي الظُّلم عن الله . تعالى . بصيغة المبالغة "ظلاَّم الذي يشير إلى أن الكافر هو الذي بلغ في الظُّلم منتهاه بهذه الأفعال القبيحة التي سجلها القرآن الكريم عليه فقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ "وارد لتحقيق الحق على أبلغ وجه، وفيه إشارة إلى أن تعذيب من يعذب من العبيد إنما هو عن استحقاق في نفس الأمر"(١).

فالتعبير بـ "ظلَّام" هنا يعطينا منتهى عذاب هذا الكافر وشدته وقوته، وذلك يتناسب مع بيان منتهى جرمه وقبح أفعاله.

كما يعطينا بيان منتهى عدل الله . تعالى . وأن ما أصاب هذا الكافر من عذاب شديد إنما هو عن استحقاق "جزاء وفاقا".

ثم إن التعبير بهذا الجمع "عبيد" دون "عباد"؛ لأنه هو الذي يتناسب مع إيقاع الفاصلة في سورة (ق) فقد بُنيت فاصلتها غالبًا على "فعيل" الياء والدال،

---

(١) روح المعاني، ٣٣٧/١٣.

وقلة "الياء والباء، والواو والدال" ترى ذلك واضحًا في قوله تعالى : "عنيد" "شديد" "بعيد" "بالوعيد"، هذا من ناحية الإيقاع الصوتي اللفظي، ثم إن هذا الجمع فيه مناسبة معنوية ؛ إذ التعبير به يؤكد نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ ويقرره؛ إذ كيف يُظلم من هو في أشد الحاجة إلى الرحمة والشفقة، ومن هو في غاية الضعف والانكسار ، فهو تعبير "لزيادة تقرير معنى الظلم في نفوس الأمة، أي: لا أظلِمُ ولو كان المظلوم عبدي"(١).

ثم إنه مما ينادي على نفي الظُّلم ـ أيضًا ـ بصيغة المبالغة "ظلاّم" في هذا السياق، ما ذكره النظم القرآني بعد هذا الختام ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ من كثرة الملقين في جهنم من الكفار والعصاة، وشدة تلهفها لهم ، ﴿ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠ ﴾(ق: ٣٠).

وهكذا ترى التناسب المعجز بين شدة جرائم الكفار الأمر الذي ينادي على شدة عقابه، مما يستوجب تصعيد نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ الأمر الذي يصور منتهى عدل الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾.

(١) التحرير والتنوير ، ٣١٧/٢٦.

المحور الثالث: نفي كينونة الظُّلم طبعًا وعادةً عن الله – تعالى–، وقد جاء ذلك في سياق واحد:

سياق تحذير كفار قريش من عاقبة التكذيب:

وفي سياق تحذير كفار قريش من عاقبة التكذيب، وتذكيرهم بمصير من سبقهم ممن كذبوا فأهلكهم الله . تعالى . ، وتسلية النبي (ﷺ) بسبب إعراض قومه عن دعوته، يأتي نفي الظُّلم عن الله – تعالى– في هذا السياق الذي يتحدث فيه عن هلاك المكذِّبين الغابرين؛ لتصوير منتهى عدله . تعالى . ورحمته ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ (الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩)

–وجه المناسبة بين الآيات:

ذكر صاحب الكشاف في إعراب "ذكرى" وجوهًا من الإعراب وعوَّل على وجه منها حيث جعل "ذكرى" متعلقة بـ "أهلكنا" مفعولًا له، وذكر أن المعنى على هذا التوجيه "وما أهلكنا من أهل قرية إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾، فنهلك قومًا غير ظالمين، وهذا "الوجه عليه المعول"(١).

ويبين ذلك صاحب الكشف بقوله: "لأنه وعبد للمستهزئين وبأنهم يستحقون أن يجعلوا نكالًا وعبرة لغيرهم كالأمم السوالف حيث فعلوا مثل فعلهم من الاستهزاء والتكذيب فجوزوا بما جوزوا وحينئذ يتلاءم الكلام"(٢).

فالزمخشري بهذا الإعراب يبين عن العلاقة والمناسبة بين "ذكرى" وبين

---

(١) الكشاف ، ١٢٨/٣.

(٢) روح المعاني، ١٢٩/١٠.

"أهلكنا"، أما عن وجه الارتباط بين ﴿ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾، و"ذكرى" فيجوز أن يكون معطوفًا على ذكرى، أي: نذكرك ولا نظلم، ويجوز أن يكون حالًا من الضمير المستتر في "ذكرى"؛ لأنه كالمصدر يقتضي مسندًا إليه(١).

-من أسرار النظم في هذا الختام:

إن في هذا الختام ﴿ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ من الأسرار والدقائق ما يحتاج إلى بيان؛ حيث التعبير بأداة النفي "ما" التي تدل على النفي المطلق فالظُّلم المنفي عن الله – تعالى– هنا ليس خاصًّا بمن سبق الحديث عن إهلاكهم وإنما هو نفي على الدوام والاستمرار؛ ولذلك عبر معه بفعل الكينونة "كان" دون دخول النفي على فعل الظُّلم نفسه؛ حيث لم يقل: "وما نظلم"؛ وذلك لأن دخول النفي على هذا الفعل "كان" فيه مبالغة في النفي؛ لأن المعنى أن الظُّلم ليس من شأننا ولا من دأبنا ولذلك قال: (وما كنا) دون ما نظلم مع أنه أخصر، لأنه يقال كان يفعل كذا لما هو عادته ودأبه"(٢)، ثم الإسناد إلى ضمير العظمة "نا" وفيه دقة تناسب مع الإسناد إلى هذا الضمير في السياق السابق "سلكناه""أفبعذابنا" "وما أهلكنا"، وفيه هذا الإسناد كذلك دلالة معنوية، إذ السياق سياق تهديد وقوة تحذير من التكذيب، والإسناد إلى ضمير العظمة يخلع على التهديد والتحذيرقوة وشدة، إذ "الإنذار والتهديد يكتسب الشدة وقوة الأثر من إسناده إلى ضمير العظمة، لأن النعمة المسندة إلى العظيم عظيمة بعظمته، والنعمة المسندة إلى العظيم عظيمة بعظمته"(٣).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٩٨/١٩.

(٢) حاشية الشهاب، ٢٨/٧.

(٣) من روائع الإعجاز (تعبير الحق عن ذاته)، ص ٤٧.

ثم مجيء صيغة الظُّلم على زنة اسم الفاعل "ظالمين" واسم الفاعل يدل على الثبوت والدوام، وهذا أدخل في نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ من مجرد نفي الفعل.

كما أن التعبير بصيغة الجمع "ظالمين" دون ضمير الإفراد له خصوصية في هذا السياق فهو يتناسب مع ضمائر العظمة في "وما أهلكنا""وما كنا"، كما أن هذا الجمع ـ أيضًا ـ يعلو به صوت التحذير والتهديد الذي يرمي إليه السياق، ويصور كذلك تفظيع شأن الظُّلم وتبشيعه، وذلك بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ فـ "التعظيم بصيغة الجمع والضمائر الدالة عليه غير عزيز في القرآن، بل إن أكثر ما تحدث فيه الله عن عظمة ذاته كانت الجموع أو ضمائر الجمع ناطقة بتعظيم المتكلم مصبغة على المتحدث عنه من جلال المتحدث ما يوجب تعظيمه"(١).

ثم إن الإهلاك في هذا السياق لم يقع على قرية واحدة وإنما استغرق جميع قرى المكذِّبين "وما أهلكنا من قرية" ؛ حيث وقعت "قرية" منكرة في سياق النفي مجرورة بـ "من" فأفاد الاستقصاء والشمول في نفي الظُّلم عن الله – تعالى– عن أي قرية من القرى التى أهلكها.

ثم إنه ـ تعالى ـ نفى الظُّلم عن ذاته ـ تعالى ـ ولم يذكر النظم مفعولًا له؛ حيث لم يُقيده بمفعول محدد بل جعل نفي الظُّلم على إطلاقه، وهذا الإطلاق أوقع في نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى– ففي "كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعني في نفسه فعلًا للشيء، وأن تخبر بأن من شأنه أن يكون منه، أولا يكون إلا منه، أولا يكون منه، فإن الفعل لا يُعَّدى هناك ، لأن تعديتَه تَنْقُض الغرض وتغيِّر المعنى"(٢).

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص ١٠٠.

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ١٥٥، وينظر: خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم البيان)، د/ محمد محمد أبو موسى، ص٢٧٣، مكتبة وهبة، ط الثالثة.

ثم إن هنا سؤالًا يطرح نفسه، وهو ما سر اقتصار النظم القرآني على نفي الظُّلم عن الله . تعالى . دون إثباته للمكذِّبين مع هذا النفي كما جاء في بعض السياقات؟

يبدو –والله تعالى أعلم– أنه لما كان الالتفات في سورة الشعراء إلى جانب الله

– تعالى– وتجلية صفتي العزة والرحمة التي كررت في سورة الشعراء ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾ ثماني مرات وألح عليه النظم القرآني في التعقيب على كل قصة من القصص التي ذكرت في هذه السورة ناسب أن يقتصر على ما يؤكدهما كذلك، فنفى الظُّلم عن الله . تعالى . دون أن يقرنه بإثبات للمكذِّبين.

المبحث الثاني
نفي الظُّلم عن الله ـ تعالى ـ بـ (ليس) في خواتيم الآيات

وقد جاء ذلك في ثلاثة سياقات:

السياق الأول: الحديث عن قبائح اليهود وعقابهم الشديد عليها:

وفي سياق بيان قبائح اليهود وعِظَم جرمهم في حق الله – تعالى– وحق أنبيائه وتوعده لهم بالعذاب الشديد يأتي الظُّلم منفيًّا عن الله ـ تعالى ـ في ختام الآية بأداة النفي "ليس".

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (آل عمران: ١٨١، ١٨٢).

هذه الآية التي وقع في ختامها نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ليس" ترتبط بما قبلها ارتباطًا وثيقًا؛ حيث تكشف عن السبب الذي كان من أجله هذا العذاب الشديد في الآية السابقة عليها ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ...﴾فإنه "تعالى لما ذكر الوعيد الشديد ذكر سببه فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾أي هذا العذاب المحرِق جزاء فعلكم حيث وصفتم الله بالفقر، وأقدمتم على قتل الأنبياء، فيكون هذا العقاب عدلًا لا جورًا"[(١)].

-تجاوز اليهود الحد في الظُّلم:

لقد بلغ اليهود منتهى الظُّلم وتجاوزوا الحد في التقبيح؛ حيث نسبوا إلى الله – تعالى– الفقر وأكدوا ذلك ب "إن" ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ ، ونسبوا إلى أنفسهم الغنى ولم يؤكدوا ذلك، وكأن ما نسبوه إلى أنفسهم ليس مجالًا للشك أو النزاع

(١) تفسير الرازي، ٩/٤٤٨.

﴿ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ ﴾، فـ "حيث نسبوا إلى الله ما نسبوا أكدوا الجملة ب "إنّ "على سبيل المبالغة، وحيث نسبوا إلى أنفسهم ما نسبوا لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد ، كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى أن يؤكد"(١).

-تصعيد التقبيح باقتران هذه الجريمة بجريمة أخرى:

ومما يلاحظ أن النظم القرآني هنا عطف على هذا القول الشنيع ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ ﴾ جريمة أخرى شنعاء وهي ﴿ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾ فـ "القول في هذه الآية أشنع الأقوال في الله – تعالى- ، والقتل أشنع الأفعال التي فعلوها مع أنبياء الله – تعالى- وتشريك القتل مع هذا القول يدل على أنهما يسببان في استحقاق العقاب"(٢).

-تصعيد التهديد والوعيد لتصعيد القبائح:

ومن دقة العدل الإلهي أن يتناسب الجزاء مع العمل، فهؤلاء لما ارتكبوا أشنع الأقوال في حق الله – تعالى- وأشنع الأفعال في حق أنبيائه، ناسب أن يكون الجزاء في تهديدهم وإنذارهم بالعذاب الشديد متناسبًا مع هذه الجرائم؛ حيث تسمع صوت التهديد المرعب متدرجًا صاعدًا من مطلع الآية حيث القسم "لقد"، والتعبير بالفعل "سمع، والتعبير بلفظ الجلالة "الله" الذي يدل على الهيبة والجلال، ثم التعبير بلفظ الكتابة مسندًا إلى ضمير العظمة "سنكتب" ثم يبلغ التهديد منتهاه بهذا التصريح ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ حيث صرح بلفظ (الذوق) وهي: كلمة تقال لمن أيس عن العفو، أي ذق ما أنت فيه فلست بمتخلص منه،

(١) البحر المحيط، ٣/٢٣٠.

(٢) السابق نفسه.

والمؤذن بأن ما هم فيه من العذاب والهوان يعقبه أشد منه وأدهى(١).

ثم التصريح بلفظ "العذاب" (عذاب) ثم إضافته إلى (الحريق) فكل ذلك يدل على منتهى شدة العذاب الذي نادى عليه مبالغة اليهود في القبائح.

-ذكر سبب هذا العذاب المتصاعد:

ولا يكتفي النظم القرآني في هذا السياق بذكر قبائح اليهود، وذكر عذابهم الذي يتناسب مع عظم جرمهم، وإنما يتدرج صاعدًا، ومبينًا عن سبب هذا العذاب المرعب والتهديد القوي حيث ذكر سببين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾فأبان عن السبب الأول، وفيه من الدقائق والأسرار؛ حيث التعبير باسم الإشارة للبعيد، وفيه "إشارة إلى العذاب المحقق المنزل منزلة المحسوس المشاهد، وللإشارة إلى عظم شأنه وبعد منزلته في الهول والفظاعة أتي باسم الإشارة مقرونًا باللام والكاف"(٢).

ثم ذكر "اليد" وتخصيص ذكر اليد هنا له دلالته؛ وذلك "لأن أكثر الأعمال تزاول بها، وليُفيد أن ما عُذِّبوا عليه هو من عملهم حقيقة لا مجازًا، فإن نسبة الفعل إلى يد الفاعل من إلصاقه به ما لا تفيده نسبته إلى ضميره؛ لأن الإسناد إلى اليد يمنع التجوز، فمن المعهود أن يقال: فلان فعل كذا إذا أمر به أو مكَّن العامل منه وإن لم يباشرهُ بنفسه، ومتى أُسند إلى يد تعيَّن أن يكون باشر فعله بنفسِهِ، وإن لم يكن من عمل الأيدي"(٣).

(١) ينظر : حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين الخفاجى، ٨٥/٣، دار صادر . بيروت.

(٢) روح المعاني، ٣٥٣/٢.

(٣) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٢١٨/٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

-السبب الآخر: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ﴾

وهذا السبب معطوف على السبب الأول ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ وهما سببان يكشفان عن سر هذا التهديد الصاعد، وهذا العذاب المؤلم الذي سبق ، ويصور منتهى عدل الله – تعالى– في هذا العذاب الذي يلحق الكافرين بسبب جرمهم و "عطف قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾على مجرور الباء ليكون لهذا العذاب سببان: ما قدمته أيديهم، وعدل الله . تعالى .، فما قدمت أيديهم أوجب حصول العذاب، وعدل الله – تعالى– أوجب كون هذا العذاب في مقداره المشاهد من الشدة حتى لا يظنوا أن في شدته إفراطًا عليهم في التعذيب"(١).

والمتأمل في نظم هذه الخاتمة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ﴾ يجد أنها جاءت محتشدة بوسائل التوكيد المختلفة حيث "أن"، والتعبير بلفظ الجلالة "الله" الذي ينبىء بالكمال والجلال والهيبة ، ثم أداة النفي "ليس" التي تؤكد هذا النفي وتدل على استمرارية نفي الظُّلم عن الله – تعالى– في جميع الأزمنة، وزيادة "الباء" في خبرها وصيغة المبالغة "ظلاَّم" فهذا كله يؤكد الخبر ويقويه وذلك في نفي نسبة الظُّلم إلى الله . تعالى ..

-توجيه العلماء لنفي الظُّلم عن الله . تعالى . بصيغة المالغة "ظلَّام":

الذي لفت نظر العلماء في هذه الخاتمة الظُّلم المبالغ فيه عن الله . تعالى . ولما كان هذا النفي يشعر بنفي المبالغة فقط ويبقي أصل الفعل وهذا مستحيل في حق الله – تعالى– تعددت توجيهاتهم على النحو الآتى:

فقيل إن هذا التكثير بسبب المتعلق "العبيد" ، وقيل إن "فعالًا" قد يأتي ولا يراد به الكثرة، وقيل: إذا نفَي الظلُّم الكثير اتبَّع القليل ضرورة ، وقيل: إن

(١) التحرير والتنوير ، ٤/١٨٥.

العذاب الذي توعدَّ أن يفعله بهم: لو كان ظالمًا كان عظيمًا، فنفاه على حد عظمِهِ لو كان ثابتًا.. [١].

وهذه التوجيهات معتبرة هنا وذلك حتى لا تشعر هذه الصيغة إذا لم توجه بالمحال في حق الله . تعالى ..

ويبدو – والله تعالى أعلم – أن التعبير بصيغة "ظلَّام" في هذا السياق وراءه دقائق وأسرار تتناسب مع السياق، فمن هذه الأسرار هو تبشيع هذا الظُّلم وتقبيحه بالنسبة لله . تعالى . وهذا يصور منتهى عدله بين عباده هذا من جانب.

ومن جانب آخر تصور هذه الصيغة "ظلَّام" في هذا السياق، وتعرِّض بتجاوز اليهود في هذا الظُّلم، وأنهم قد بلغوا الغاية فيه، وذلك عندما نسبوا إلى الله . تعالى . ما ليس قائمًا به، وعندما تجرؤا على أنبيائه بالقتل، فجاء التعبيرب" "ظلَّام" في صيغة المبالغة هذه للتشنيع عليهم، والتعريض بظلمهم الذي جاوز الحدود، في أكلهم أموال الناس بالباطل، وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم:إن الله فقير ونحن أغنياء، فهم – والأمر كذلك – ليسوا ظلمة فحسب بل هم ظالمون لعباد الله، ولأنفسهم"[٢].

ويمكن أن يلمح مع هذا المعنى التعريضى الذي يكمن وراء صيغة المبالغة "ظلام" في هذا السياق معنى آخر وهو أنه – سبحانه وتعالى– لما توعد اليهود بأشد العذاب وأقساه وبلغ الغاية في ذلك بسبب جرمهم وقبائحهم، ناسب أن يترقي في نفي الظُّلم عن نفسه – تعالى . حتى لا يظن أن في هذا العذاب الشديد تجاوزًا أو إفراطًا، فـ "عدل الله . تعالى . أوجب كون هذا العذاب في مقداره

---

(١) ينظر: البحر المحيط، ٤٥٧/٣، البرهان في علوم القرآن ٥١١/٢–٥١٣، محاسن التأويل للقاسمي، المحقق/ محمد باسل عيون السود، ٣٠٩/٥، دار الكتب العلمية– بيروت، ط الأولى – ١٤١٨هـ.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ٦٦٠/٢، دار الفكر العربي . القاهرة.

المشاهد من الشدة حتى لا يظنوا أن في شدته إفراطًا عليهم في التعذيب"(١).

وبذلك يتناسب نفي الأبلغية في الظُّلم عن الله – تعالى– مع قوة العذاب وحجمه الذي يتناسب . أيضًا . مع تجاوز اليهود الحد في القبائح.

فمن منطلق العدل الذي تسبح حوله سورة آل عمران ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ ومن مقتضياته أن يتساوى الجزاء مع العمل.

ثم إننا لو وسعنا دائرة النظر في السياق السابق لوجدنا أن الله – تعالى– قد نوع في عذاب الكافرين، حيث وصف عذاب الكافرين مرة: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(الآية: ١٧٦)، ومرة: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(الآية: ١٧٧)، ومرة : ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، ومـرة: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ وهـذا التنـوع فـي العذاب إنما كان متناسبًا غاية التناسب مع تنوع الأعمال، ومن ثَمَّ كان تنوع درجات العذاب قوة وضعفًا حسب الأعمال مناديًا على نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بصيغة المبالغة "ظَلَّام" التي تؤذن بمنتهى العدل والاستحقاق.

تأمل هذا التدرج في السياق ، أعمال في غاية القباحة، تنادي على جزاء في غاية الشدة، وجزاء في غاية الشدة ينادي على نفي الظُّلم عن الله – تعالى– وتأكيد هذا النفي بصيغة المبالغة "ظَلَّام" كل ذلك ينتج تصوير منتهى العدل والاستحقاق وأن الله . تعالى .﴿ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ ﴾ .

–سر جمع "عبد" هنا على "عبيد" دون "عباد":

مما يلاحظ هنا في هذه الفاصلة كذلك أن نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بأداة النفي "ليس" مع صيغة المبالغة "ظَلَّام" لم يأت معها جمع "عبد" إلا على "عبيد" دون "عباد" فما السر الذي يكمن وراء ذلك، وما مقتضاه؟

(١) التحرير والتنوير، ٤/١٨٥.

يقول ابن عطية كاشفًا عن منهج القرآن الكريم في استعمال الجمعين "عباد" "عبيد": والذي استقرأت في لفظة العباد أنه جمع "عبد" متى سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ "وعباد مكرمون..." وأما العبيد فيستعمل في التحقير ، ومنه قول امرئ القيس:

قُولا لِدُودَانَ عَبيدِ العَصَا * ما غَرَّكُمْ بالأَسدِ الباسِلِ**[(١)]

ومنه قول حمزة بن عبدالمطلب: "وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟" ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾، لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه . تعالى . ليس بظلام لهم مع ذلك، ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا"[(٢)].

وهذا فقه دقيق من ابن عطية في تلمس الأسرار والدقائق بين الجمعين؛ حيث يرى أن جمع "عبد" على "عباد" يتناسب مع سياق الرفق والتشريف وعلو الشأن، وأن جمع "عبد" على "عبيد" يتناسب مع مقام الذلة والمهانة، وإبراز منتهى العجز والتشقيق فلفظ "العبيد هو الذي يجسد وحده ذلتهم وضعهم وعجزهم عن فك رقابهم من عذاب الله، وهو في نفس الوقت يجسد عدل الله . تعالى . الذي لا يتناهى حين ينصفهم مع شدة غضبه عليهم، ولا يقابل ظلمهم بظلم مثله"[(٣)].

ومن ثَمَّ فإن جمع "عبد" على "عباد" بهذه الألف الممدودة إنما هو تصوير

(١) ديوان امرئ القيس، اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي، ص ١٤١، دار المعرفة . بيروت، ط الثانية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٢) المحرر الوجيز، ١/٤٦١ (بتصرف).

(٣) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ (دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن)الدكتور/ محمد الأمين الخضري، ١٧٨، ١٧٩، ط الأولى ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

يوحي بالعزة والأنفة والرفقة، وكأنها مرفوعة الرأس منصوبة القامة باستمرار، وجمع "عبد" على "عبيد" بهذه الياء التى قبلها المكسورة تصور منتهى الذلة والضعف والمهانة(١).

هذا هو التعليل الذي ينهض ببيان إعجاز القرآن الكريم في إنزال كل جمع في سياقه المناسب، ومن ثمَّ فإن ما قاله أبو حيان من أن جمع "عبد" على "عباد" هو المقيس، وأن جمعه على "عبيد" إنما كان لتوخي الفواصل(٢)، ليس كافيًا فقد راعي الجانب اللفظي للفاصلة دون الجانب المعنوى، والفاصلة تقوم على مراعاة الجانبين معًا مع مراعاة جانب المعني أولًا.

السياق الثاني : تصوير شدة عذاب الكافرين عند الوفاة:

وفي سياق تصوير شدة عذاب الكافرين وإهانتهم والسخرية منهم عند الوفاة يأتي ختام الآية بنفي الظُّلم عن الله – تعالى– بأداة النفي "ليس" مسلطًا على صيغة المبالغة "ظلاَّم"، تصويرًا لمنتهى العدل وتحقيقًا لبالغ الإنصاف قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١ ﴾ (الأنفال: ٥٠، ٥١).

هاتان الآيتان تتحدثان عن حال الكافرين عند الوفاة وما أعده الله – تعالى– لهم من عذاب شديد، وذلك بعد أن أبان عن حالهم، وموقفهم المناوئ للدعوة ولرسول الله (ﷺ) وفصل في ذلك، فكان هذا العذاب الشديد جزاءً وفاقًا لحالهم "فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لما شرح أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم، والعذاب الذي

---

(١) ينظر : لطائف قرآنية، الدكتور / صلاح عبدالفتاح الخالدي، ٥٨–٦٢، دار القلم ـ الدار الشامية، ط٢، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م.

(٢) ينظر: البحر المحيط ، ٣/٢٣١.

يصل إليهم في ذلك الوقت"[١].

-تصوير شدة العذاب وقوته:

وواضح أن ختام الآية ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١ ﴾يقع في هذا السياق الذي يدل على شدة عذاب الكافرين وتهويل شأنه، وتفظيع أمره، وليس أدَّل على ذلك من حذف جواب (لو) الذي يفتح الباب أمام الخيال ليذهب في تقديره كل مذهب، فـ "حذف الجواب يقع في مواقع التفخيم والتعظيم ... وإنما يحذف لقصد المبالغة، لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرّح به فلا يكون له ذلك الوقع"[٢].

ثم التعبير بلفظ الجمع "الملائكة" والملائكة لهم حضور في إهانة الكافرين بالضرب في سورة الأنفال إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ﴾ (الآية:١٢) فلا عجب أن تهينهم الملائكة بالضرب في الآخرة كما أهانتهم بالضرب في المعركة.

ثم التعبير بـ "يضربون" والتعبير به يدل على القوة والشدة، ثم مجيئه في قالب المضارع الذي يوحي باستحضار صورة الضرب أمام الناظر وتجدده وقتًا بعد وقت، وذلك يدل على شدة العذاب الذي يلحق الكافرين عند وفاتهم.

ثم إن التعبير بالموصول وصلته "الذين كفروا" يكشف عن عظم جرمهم، وقبيح أفعالهم، فطغيانهم وتمردهم، وعنادهم للحق هو السبب الذي نادى على هذا العذاب الشديد الذي نزل عليهم.

(١) تفسير الرازي، ٤٩٣/١٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ١٨٣/٣.

ثم إن التعبيرعن الكافرين بما ينادي على عظيم جرمهم "الذين كفروا" ليس بعزيز وروده في سياق سورة الأنفال، تأمل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾(الأنفال : ١٥)، ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال : ٣٠)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾(الأنفال: ٣٦)، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾(الأنفال: ٣٨)،، فالإلحاح على التعبير بالموصول وصلته "الذين كفروا" يشير إلى سببية هذا العذاب الشديد الذي يُعَّد لهم عند الوفاة.

ثم إن في تقييد الضرب بالوجه والدبر ما يدل على منتهى الإهانة والذلة، وذلك "لأن الخزي والنكال في ضربها أشد" (١).

-تصعيد العذاب بالجمع بين الضرب والقول بإذاقة العذاب:

ثم إن العذاب يتصاعد وتعلو شدته وذلك بالجمع في وفاة الكافرين بين عذاب الضرب على الوجه والأدبار وعذاب آخر وهو القول بإذاقة العذاب " ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ وسواء أكان قول الملائكة لهم هذا القول عند الوفاة أو في الآخرة فإن وراءه من الإهانة والسخرية ما وراءه، فهو عذاب نفسي يضاف إلى العذاب الجسدى الذي سبق، وصورة هذا العذاب إنما تبلغ منتهاها عندما يجمع النظم القرآني في عقابه للكافرين بين عذابين "عذاب

---

(١) الكشاف ، ٢/١٣١.

جسدي" و "عذاب نفسي" فـ "القرآن حين يعرض مشاهد العقاب الذي يصطليه أعداء الله لا يكتفي بعرض العقاب الحسي، وإنما يبرز . أيضًا . جانب العقاب النفسي، ليكون العقاب كاملًا جسديًا ونفسيًا وليكون الزجر به والتخويف منه أبلغ في النفوس" (١).

ولعل التعبير بمادة الذوق "ذوقوا" ، وكون المذوق "عذابًا " ثم الكشف عن نوع هذا العذاب "الحريق" مما يقوّي شدة العذاب ويصعّده بالإهانة من الكافرين والسخرية منهم ، والاستخفاف بحالهم.

أرأيت كيف صعد النظم القرآني عقاب الكافرين عند وفاتهم وكيف شدده؟

ثم إن التعبير بلفظ الإذاقة هنا يتجاوب مع التعبير نفسه في سياق السورة مع الكافرين . أيضًا . في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾(الأنفال: ١٤).

كما أن تصعيد العقاب هنا يتلاءم مع سياق السورة كذلك، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ (الأنفال: ١٣)، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٥).

-بيان علة هذا العذاب المتصاعد:

ثم يتابع النظم القرآني ويتدرج حيث يصرح ببيان العلة والسبب ويكشف عن السبب الذي يكمن وراء هذا العذاب الشديد الذي أعد للكافرين، وهذه الإهانة البالغة المتصاعدة في هذا السياق، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ

(١) التصوير الساخر في القرآن الكريم، د/ عبدالحليم حفني، ص ٢١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥١﴾، فالسبب الأول لهذا العذاب البالغ، وهذه الإهانة الشديدة ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾، حيث يحمّل القرآن الكريم الكفرة المسئولية عن مصيرهم المأسوي، فهم الذين صنعوا هذا المصير المهين لأنفسهم وبما كسبت أيديهم، ويلاحظ أن هذه الجملة التعليلية يتصدرها اسم الإشارة للبعيد "ذلك" الذي يعلّي من تفخيم شأن المشار إليه "العذاب" ويبرز سببية العذاب في صورة قوية واضحة، ويزيد كذلك علة العذاب تأكيدًا وتحقيقًا.

-تلاؤم الخاتمة مع سياقها:

ثم يأتي السبب الثاني في بيان علة العذاب معطوفًا على السبب الأول ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥١ ﴾ ، وإذا كان السبب الأول أكدَّ على المسئولية الإنسانية فإن هذا السبب يؤكد على العدالة الإلهية، والإنصاف الإلهي.

ومما يلاحظ هنا أن هذا السبب قد صيغ صياغة مؤكدة حيث "أن" ولفظ الجلالة "الله"، واختيار أداة النفي "ليس" التي تأتي في سياقات المبالغة وتتناسب الزيادة في مبناها مع الزيادة في نفي الظُّلم عن الله – تعالى– ثم زيادة الباء في حيزها مع التعبير بصيغة المبالغة (ظلَّام) وهذا كله يتصاعد بنفي الظُّلم عن الله . تعالى– في هذا السياق الذي تتصاعد فيه نبرة العذاب والإهانة والسخرية مما يدل على "أن استحقاقهم العذاب بلغ الغاية، بحيث لولاه لكان تعذيبهم غاية الظُّلم، وأيضًا لو عذب تعالى عبيده بدون استحقاق ، وسببٍ لكان ظلمًا عظيمًا لصدوره عن العدل الرحيم" (١).

إن نفي الظُّلم عن الله – تعالى– في هذا السياق بصيغة الأبلغية يدل دلالة واضحة على بيان منتهى ظلم الذين كفروا؛ حيث بلغ ظلمهم في الشدة مبلغًا عظيمًا استوجب لهم قوة العذاب الذي يلاحقهم الأمر الذي ينادي على

(١) حاشية الشهاب، ٤/٢٨٤.

منتهى عدل الله ـ تعالى ـ معهم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

فشناعة أعمال الكافرون يقابلها شدة العذاب وتهويله، هذه الشدة تستوجب تصوير منتهى العدل معهم برغم هذه الشدة تستوجب تصوير منتهى العدل معهم برغم هذه الشدة في العذاب ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ ، ثم إن منتهى العدل ـ أيضًا ـ الذي يصوره هذا الختام يؤكده يعلّيه ما جاء بعده من بيان أن حالهم في ذلك حال من سبقهم من الأمم الظالمة ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٥٢–٥٤) فـ "هذا استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشيء آخر حيث شبه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك لذلك لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم المهلكة" (١).

السياق الثالث : سياق بيان سوء عاقبة المجادل في الله ـ تعالى ـ عن جهالة وضلال:

وفي سياق بيان سوء عاقبة المجادل في الله ـ تعالى ـ عن جهالة وضلال، وما أُعِدَّ له من سوء العذاب وبالغ الإهانة، يأتي نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بأداة النفي "ليس" مسلطة على صيغة المبالغة "ظلاّم" مقيدة بـ "العبيد" ، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾

(١) روح المعاني، ٥/٢١٥.

ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾ (الحج: ٨: ١٠).

-مناسبة الآية لما قبلها:

وقبل بيان التدرج الذي أدى إلى هذا الختام الذي أكد نفي الظُّلم عن الله – تعالى– لابد من كشف المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها، حتى يتبين الربط الوثيق، والعلاقة المتينة التي تجلِّي هذا الربط؛ حيث "لما ذكر تعالى حال الضُّلَّال الجهَّال المقلدين في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ ﴾أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى"[1].

فالعطف بـ "الواو" في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾على ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.. وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ.﴾ يفيد الترقي من بيان مجادل شنيع إلى مجال أشد قبحًا وشناعة وأوصافه التي وصف بها تدل على منتهى قبحه بخلاف الأول.

-بيان صفات هذا المجادل بالباطل:

يلاحظ أن النظم القرآني قد جلَّىَ صفات هذا المجادل بما ينبئ عن منتهى قبحه، فهو أولًا: يجادل في الله، والمجادلة في الله – تعالى– تعني : "المجادلة في ذاته وصفاته وقدرته وعلمه ووحدانيته، وكل مجادلة حول شركاء له مجادلة

(١) تفسير ابن كثير، ٣/٢٠٨.

في ذات الله" (١).

وهو ثانيًا: "وهو جدال بغير علم"، وثالثًا: "وأنه جدالٍ بغير هدى" وأنه رابعًا: "وأنه بغير كتاب منير"، وهو خامسًا: يتيه كبرًا واستعلاءً مما يدفعه لعدم قبول الحق وإعراضه عن الهدي "ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله"، هكذا أوقفنا القرآن الكريم على منتهى طغيان هذا المجادل، وجلَّى لنا أوصافه القبيحة الأمر الذي يهيئ لبيان منتهى عذابه.

-بيان شدة عذاب هذا المجادل في الله ـ تعالى ـ المترتب على عِظَمِ جُرمه:

ثم بين النظم القرآني شدة عذاب هذا المجادل بما يتناسب مع شدة عناده وكبريائه وإعراضه عن الحق، فقال: "له في الدنيا خزي" ويلاحظ أولًا مجيء هذه الجملة غير معطوفة ، فهي "مستأنفة مبيَّنة لما يحصُل له بسبب جداله من العقوبة، والخزي: الذل، وذلك بما يناله من العقوبة في الدنيا من العذاب المعجَّل وسوء الذكر على ألسن الناس، وقيل: الخزي الدنيوي هو القتل كما وقع في يوم بدر" (٢).

فمادة خزي تدور حول السوء، والإهانة، والفضيحة، والهلاك، والقهر (٣).

ومجيء هذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا يمنحها مزيدًا من العناية والاهتمام فتقع في النفس موقعًا مؤثرًا.

ثم تقديم "له" الذي يفيد التوكيد والاهتمام، ثم تقديم المكان "في الدنيا" وهذا التقديم فيه مبادرة وإسراع في تبشيع حاله، فهذا المكان الذي أبرز فيه علوه واستكباره وصلفه، تحول إلى الضد؛ حيث أصبح مكانًا إلى إظهار صغره وخزيه

(١) زهرة التفاسير لأبي زهرة، ٤٩٤/٩، دار الفكر العربي.

(٢) فتح القدير للشوكاني، ٥٢٠/٣، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، بيروت، ط الأولى ـ ١٤١٤هـ.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادة: (خزي).

وهوانه، وحتى يكون عبرة لغيره ، وإنذاراً بسوء العاقبة ، ثم يأتي "خزي" منكرًا، وتنكيره يشعر بعظم شأنه، وتهويل أمره، فهو خزي منكر مجهول يتلاءم مع حالة تأمل هذا التهديد البالغ.

-الترقي من عذاب شديد في الدنيا إلى عذاب أشد في الآخرة:

ولم يكتفِ النظم القرآني بإهانة هذا المجادل، وتبشيع حاله، وبيان سوء عذابه في الدنيا وإنما ترقي ؛حيث قرن عذابه الشديد في الدنيا بعذاب أشد في الآخرة ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ﴾ و "الإحراق إيقاع نار ذات لهيب في الشيء" (١)، والإهانة والذلة التي تلحق المجادل بالباطل تبلغ هنا منتهاها وذلك من خلال التفرس في نظم هذه الجملة؛ حيث التعبير بالذوق الذي يشي بالسخرية والإهانة، كما يشي التعبير به كذلك بأنه ينذر بأن ما بعده من العذاب أشد منه، ثم تبلغ الإهانة مبلغًا عندما أسند فعل الذوق إلى ضمير العظمة "ونذيقه" ثم تقديم مكان الإذاقة والتصريح باسمه "يوم القيامة"، والفضح على رءوس الأشهاد، وحشد الخلائق، ثم تصريح بالمذوق وتحديد نوعه "عذاب الحريق" "أي يجعله يحس بألم العذاب بالحريق كما يحس الذائق بالشيء كما أحرق قلوب المهتدين بجداله بالباطل" (٢).

أرأيت كيف بلغ العذاب منتهاه لهذا المجادل بالباطل؟ أرأيت كيف بلغ تهديد المجادل ووعيده درجة عظيمة، حتى يكون عبرة وعظة لمن تسول له نفسه أن يسلك مسلكه؟

إنّ شدة العذاب الذي أُعِدَّ لهذا المجادل يتناسب تمام التناسب مع قبح

---

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ، ضبطه وراجعه / محمد خليل عتياني، ص ١٢١، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ط الثانية، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

(٢) نظم الدرر ، ١٦/١٣

جرمه "ومن هنا كان صور العذاب في جهنم ، وتفاوتها في الشدة والبشاعة، رغم أنهم يجمعهم الكفر ، إلا أن كل صورة من صور الكفر يختلف عقابها في شدته تبعًا لاختلاف صورة الكفر عن صورة الأخرى" (١).

-اقتران هذا الجزاء الذي بلغ منتهاه بسببه:

ثم يتدرج القرآن الكريم من ذكر جرم هذا المجادل إلى ذكر جزائه ، ثم إلى ذكر سبب هذا الجزاء المتصاعد؛ حيث يذكر له سببين على غرار ما سبق في الشاهد الذي تقدم في الآية السابقة:

السبب الأول: "ذلك بما قدمت يداك" ونلاحظ أن هذا السبب يعود على هذا المجادل نفسه، وأن استحقاقه لهذا العذاب إنما هو من صنع يده هو ، فعليه تقع المسئولية وليس على غيره ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ وراء هذا السبب من التوبيخ والتبكيت ما وراءه حيث الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ففي مجابهة المجادل بذلك شديد الألم وعظيم اللذع.

السبب الآخر: ختام الآية وإظهار منتهى عدل الله . تعالى .:

ثم تأتي هذه الخاتمة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ﴾كاشفة عن السبب الآخر من سببي العذاب لهذا المجادل؛ حيث تظهر منتهى عدل الله – تعالى – به، وأن ما نزل به من إهانة نفسية بالغة ومن عذاب جسدي شديد إنما يظهر منتهى عدل الله . تعالى . وإنصافه.

فانظر إلى دقة المناسبة بين هذه الخاتمة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ﴾وبين ما سبقها؛ حيث تجد دقة التلاحم والترابط والتأكيد على ما

(١) أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم حفني ، ص ٢٧، مكتبة الآداب، ط الأولي، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠هم.

سبق ، فهي ترتبط بما قبلها مباشرة ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾ في بيان سببية العذاب ، والسببان يرتبطان بما قبلهما حيث يكشفان عن شدة جزاء المجادل، وقوة الجزاء وشدته مرتبطة كذلك بشدة جرمه وقبيح أفعاله، وهكذا ترى التلاحم والتدرج والترابط وتوكيد اللاحق للسابق.

-بناء الخاتمة بناءً لا يجافي السياق والغرض المقصود:

ثم ترى هذه الخاتمة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ﴾قد بنيت بناءًا لا يتعاند مع السياق ولا الغرض المقصود؛ حيث جاء نفي الظُّلم عن الله . تعالى . مؤكدًا بـ "أنَّ" والتأكيد بـ "أنَّ" و "إنَّ" له حضوره في هذا السياق الذي يؤكد فيه على حقيقة البعث ، ويرد فيه على المنكرين له، ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾(الحج: ١)، ﴿ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾(الحج: ٤)، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ ﴾(الحج: ٦)، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ ﴾ (الحج: ٧).

وإيثار لفظ الجلالة "الله" في بناء ختام الآية دون غيره له خصوصية كذلك، وذلك لأن الظلم يتنافى مع كمال الألوهية وعزتها وهيبتها، فليس من طبيعة الإله الظُّلم، وإنما العدل المطلق والرحمة الكاملة.

كما أن المجادلة هنا وقعت في حقه . تعالى . فناسب ذلك حضور لفظ الجلالة "الله" ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ... ﴾، كما أن لفظ الجلالة "الله" تردد كثيرًا في سياق الآيات السابقة﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾،﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾،﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾، ثم تأتي أداة النفي "ليس" وهي أكثر في البنية من "ما" وأدل على نفي الظُّلم عن الله . تعالى . على سبيل الدوام والاستمرار، فالنفي هنا مستمر وهو

معنى من معاني النفي بـ "ليس" [١]، ولما كانت كذلك كان اصطفاؤها هنا أولى، وذلك حتى يتم التلاؤم بين شدة العذاب وشدة نفي الظلم عن الله . تعالى . حتى يتأكد منتهى عدله.

ثم تأتى صيغة المبالغة المؤكدة بالباء الزائدة في خبر ليس "بظلَّام"، ثم العدول عن جمع "عبد" على "عباد" إلى "عبيد" مما يقوِّي دلالة نفي الظُّلم عن الله . تعالى . إذ كيف يظلم من هم في غاية الضعف والاستكانة والانكسار؟

وهكذا ترى بناء ختام هذه الآية ، وخصائص هذا البناء يصور تأكيد منتهى الظُّلم عن الله . تعالى– وأنه تعالى في غاية البعد عنه، كما يؤذن بشدة عذاب هذا المجادل، وأنه بجداله بالباطل في حق الله . تعالى . قد بلغ به الظُّلم منتهاه.

–تعقيب على هذه الخاتمة المتحدة:

مما يلاحظ في هذه الخاتمة ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾، قد جاءت متحدة شوهد القرآنية الثلاثة ، فما علة هذا الاتحاد، وما دلالته؟

–إنَّ هذا الاتحاد يرجع إلى أمور منها:

إنّ السياق الذي جاءت فيه هذه الخاتمة يتحدث فيه عن أقبح جرم الكافرين، وإبراز منتهى تطاولهم وعنادهم؛ حيث ترى في سورة "آل عمران" حديث عن اليهود وتطاولهم على الله – تعالى– في نسبته إلى الفقر، ونسبتهم إلى الغني، وتجرؤهم على قتل الأنبياء.

وتجد في سورة "الأنفال" تصويرًا لمنتهى جُرم الذين كفروا ، وتفصيل أحوالهم بما يدل على منتهى كفرهم، وفي سورة "الحج" جدال المشركين بالباطل،

(١) ينظر: معاني النحو: ٤/١٩٠.

وإبراز منتهى استكبارهم وطغيانهم ، فالذي يجمع بين الثلاثة هو تصوير منتهى الإجرام والطغيان.

كما يلاحظ كذلك في الجمع بين هؤلاء الثلاثة هو تصوير قُبح جزائهم؛ نظرًا لقبح أفعالهم، ففي سورة "آل عمران" كان جزاؤهم هو إهانتهم مع عذابهم ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾، وفي سورة "الأنفال" جمع لهم بين الإهانة في الدنيا ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾وبين عذاب الآخرة ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾، وفي سورة الحج كذلك جمع للمجادل بين عذابين عذاب الدنيا ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ وعذاب الآخرة ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

كذلك مما يجمع بين الشواهد الثلاثة أن عذاب الآخرة جاء متحدًا مع كل واحد مما ذكر، تأمل ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

ومما يجمع بينهما – أيضًا– صعد الجزاء لتصعيد جرمهم ناسب أن يقرنه بسببه ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

كذلك جاء النظم القرآني في بيان هذا السبب مستأنفًا استئنافًا بيانيًا مبنيًّا على اسم الإشارة للبعيد "ذلك" ، وجاء الظُّلم المنفي عن الله – تعالى– بأداة النفي "ليس" منصبًّا على صيغة المبالغة "ظلاَّم" متعلقًا بالجمع "عبيد" في المواضع الثلاثة، وهنا فيه دلالة قوية على بيان منتهى العذاب لتصوير منتهى الإجرام، فكان المناسب لذلك أن تأتي الخاتمة بما يصور منتهى عدل الله – تعالى– ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ مع المعذَّبين.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعده،

فهذه دراسة بلاغية تحليلية لـ "نفي الظُّلم عن الله – تعالى – بـ "ما" و"ليس" في خواتيم الآيات"، وقد خلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج، أهمها:

١- دقة التناسب بين ختام الآية ومضمونها؛ بحيث لايمكن بحال من الأحوال أن يقوم ختام آية مقام ختام آية أخرى، الأمر الذي يعني أن الإيقاع الموسيقي غير مقصود لذاته، وإنما هناك غرض معنوي نادى على هذا الختام.

٢- جمال التناسب بين ختام الآية، وسياقها والمقصد الكلي للسورة.

٣- كانت"ما" في سياق نفي الظُّلم عن الله –تعالى– أكثر عددًا من "ليس" في هذا النفي؛ إذ وردت "ما" (١١) إحدى عشرة مرة، و"ليس" (٣) مرات؛ حيث نفي بـ"ما" مجرد الظُّلم، كما نُفي بها إرادة الظُّلم، ونُفي بها كينونة الظُّلم وثبوته، والنفي بصيغة المبالغة، أما"ليس" فقد جاءت على نمط واحد، وهو: نفي الظُّلم المنصَّب على صيغة المبالغة في المواضع الثلاثة.

٤- إذا كانت "ما" تتفوق على "ليس" في نفي الظُّلم عن الله – تعالى– عددًا وتصرُفًا، فإن "ليس" كانت أقوى منها في نفي الظُّلم عن الله ؛ إذ وُظفَّت في السياقات المرتبطة بشدة العذاب الجسدي والنفسي، وشدة الإهانة المرتبين على الجُرْم المرتكب، فهناك تناسب بين الزيادة في أداة النفي "ليس" وبين الزيادة في العذاب، فيشتد نفي الظُّلم عن الله – تعالى– ويقوى.

٥- كشفت الدراسة عن تنوع نفي إسناد الظُّلم إلى الله مع "ما"، فتارة يعبر بلفظ الجلالة "الله"، وتارة بلفظ "الرَّب"، وتارة بضمير العظمة "نا"، وأما مع "ليس" فقد التزم صيغة واحدة " الله"، وكان وراء ذلك أسرار ودقائق أبرزتها الدراسة في موضعها.

٦- كشفت الدراسة سِّر تنوع مَن انتفى وقوع الظُّلم عليه مع "ما"؛ حيث ذُكر مرة

بلفظ "العالمين"، ومرة بلفظ "العباد"، ومرة بلفظ"العبيد"، وأما مع "ليس" فلم يذكر معها إلا لفظ "عبيد" فقط.

٧- أثبتت الدراسة أن تنوع من انتفى عنه الظُّلم بين"عباد" و"عبيد" ليس مرده الأساس إلى تناسب الفواصل، وإنما مرده أولًا إلى غرض معنوي يرمي السياق إليه، ثم تجيء مراعاة الفاصلة.

٨- أبانت الدراسة أن صيغة المبالغة "ظلَّام" عندما ترد في سياق نفي الظُّلم عن الله – تعالى- أن المقصود ليس نفي الزيادة في الصفة، وإنما نفى الظُّلم من أصله، وكان ذلك تصويرًا لبيان شدة عذاب من كان الحديث عنه؛ لتصوير منتهى عدل الله – تعالى- ورحمته بعباده.

٩- توصلت الدراسة إلى أن نفي الظُّلم عن الله – تعالى- بصيغة المبالغة " ظلَّام " دلَّ على التعريض بشدة العذاب، وتضمَّن هذا التعريض تعريضًا آخر بأن هذا المعذَّب قد بلغ الغاية في الإساءة.

١٠-أثبتت الدراسة أن اقتران"ما" النافية بفعل الكينونة وبلام الجحود الداخلة على الفعل المضارع الواقع خبرًا لـ"كان" فيه تأكيد وتصعيد لنفي انتفاء الظُّلم عن الله – تعالى- وفي مجيء "كان" كذلك في جملة الإثبات تصعيد لإثبات الظُّلم لغير الله – تعالى-، وتقديم أنفسهم، والتعبير بالفعل المضارع" يظلمون"، وهذا تناسق بديع بين تأكيد النفي وتأكيد الإثبات.

١١-أثبتت الدراسة أن تقديم متعلق الظُّلم "أنفسهم" في جملة الإثبات، ليس للقصر، وإنما هولإفادة التقوي.

- هذا ويوصي البحث بأن تقوم دراسات جادة تتعلق بأدوات النفي في القرآن الكريم والبيان النبوي والإبداع الشعري؛ لبحث هذه الأدوات، ومعرفة أسرارها في سياقاتها وبيان كيف تتنوع هذه الأدوات في الموضوعات المتحدة أو التي تتشابه، فهذا موضوع جدير بالبحث والدراسة.

هذا "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

[١] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث.

[٢] الإتيان والمجيء ، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، الدكتور/ محمود موسي حمدان، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

[٣] ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي، تحقيق/ رجب عثمان محمد، مراجعة/ رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، ط الأولي، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

[٤] أساليب النفي في القرآن، د/ أحمد ماهر البقري، دار المعارف، ١٩٨٤م.

[٥] أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم حفني ، مكتبة الآداب، ط الأولي، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

[٦] الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ (دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن)الدكتور/ محمد الأمين الخضري، ط الأولى ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

[٧] إعجاز القرآن الكريم الأستاذ الدكتور/ فضل حسن عباس – سناء فضل عباس، دار النفائس – الأردن ، ط السابعة، ٢٠٠٩م.

[٨] الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ، مكتبة الصحابة بطنطا، ط الأولي ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

[٩] البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، المحقق / صدقي محمد جميل، دار الفكر . بيروت، ١٤٢٠هـ.

[١٠] البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ٥٣/١، دار التراث.

[١١] تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق/ إبراهيم شمس الدين، ص٢٥٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

[١٢] تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق الدكتور/ حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

[١٣] التصوير الساخر في القرآن الكريم، د/ عبدالحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[١٤] تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

[١٥] التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د/ عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

[١٦] تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية، الدار الجماهيرية.

[١٧] تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ-.

[١٨] تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

[١٩] تفسير القرآن الكريم لابن كثير، مكتبة النهضة الإسلامية.

[٢٠] التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي . القاهرة.

[٢١] جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

[٢٢] الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق د/ فخر الدين قباوة – الأستاذ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية؛ بيروت – لبنان، ط الأولي، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

[٢٣] حاشية ابن المنير على الكشاف، دار المعرفة ، بيروت – لبنان.

[٢٤] حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص)، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.
[٢٥] حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين الخفاجى، دار صادر . بيروت.
[٢٦] حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
[٢٧] حروف المعاني والصفات للزجاجي، تحقيق / علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولي، ١٩٨٤م.
[٢٨] الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الرابعة.
[٢٩] خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم البيان)، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط الثالثة.
[٣٠] دراسات تفصيلية شاملة بلاغة عبدالقاهر، عبدالهادي العدل، المطبعة المنيرية، ط الثانية، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
[٣١] دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، الدكتور/ عبدالجواد محمد طبق، دار الأرقم، ط الأولي، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
[٣٢] دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني . مصر، دار المدني . جدة ط الثالثة ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
[٣٣] دلالات التراكيب (دراسة بلاغية) د/ محمد محمد أبو موسي، مكتبة وهبة، ط الأولي، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
[٣٤] ديوان امرىء القيس ، اعتنى به/ عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط الثانية، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
[٣٥] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ، المحقق/ على عبدالباري وعطية، دار الكتب العلمية – ببيروت، ط الأولي، ١٤١٥هـ.

[٣٦] زهرة التفاسير لأبي زهرة، دار الفكر العربي.
[٣٧] شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق د/ عبدالرحمن السيد، د/ محمد بدوي المختون، هجر للطباعة، ط الأولي، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
[٣٨] شرح المفصل لابن يعيش، قدم له الدكتور/ إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
[٣٩] الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار عمار، ط الثانية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
[٤٠] الفاصلة القرآنية بين المبني والمعني، الدكتور/ عيد محمد شبايك، دار حراء، ط الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
[٤١] الفاصلة القرآنية (من أسرار التعبير في القرآن)، د/عبدالفتاح لاشين، دار المريخ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
[٤٢] فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب . دمشق، بيروت، ط الأولى . ١٤١٤هـ.
[٤٣] الكتاب لسيبويه، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
[٤٤] كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
[٤٥] كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث.
[٤٦] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، دار المعرفة، بيروت . لبنان.
[٤٧] لسان العرب لابن منظور ، دار المعارف.
[٤٨] لطائف قرآنية، الدكتور / صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم . الدار الشامية، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

[٤٩] مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق/محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي– القاهرة، ١٣٨١هـ.

[٥٠] محاسن التأويل للقاسمي، المحقق/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية– بيروت، ط الأولى – ١٤١٨هـ.

[٥١] المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيه، تحقيق/ عبدالسلام عبدالشافي محمد ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

[٥٢] معاني النحو، د/ فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، ط الأولى، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.

[٥٣] المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور/ محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب.

[٥٤] المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ، ضبطه وراجعه / محمد خليل عتياني، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط الثانية، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

[٥٥] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له/ محيي الدين ديب ميستو – أحمد محمد السيد – يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق – بيروت)، (دار العلم الطيبي، دمشق – بيروت)، ط الأولى، ١٤١٧هـ–١٩٩٦م.

[٥٦] ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آية التنزيل، لابن الزبير الغرناطي، وضع حواشيه/ عبدالغني محمد الفاسي ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

[٥٧] من أسرار البلاغة في القرآن، دكتور/ محمد السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط الأولى، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م.

[٥٨] مناسبة الفاصلة القرآنية لأغراض السورة "سورة الكهف" أنموذجاً، د/ الأسعد مصطفى الدرويش، دار الإحسان، ط الأولي، ٢٠١٨م.

[٥٩] من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي، نهضة مصر – القاهرة، ٢٠٠٥م،

[٦٠] من روائع الإعجاز (تعبير الحق عن ذاته)، عز الدين على السيد، عالم الكتب، ط٢، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.

[٦١] مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) ابن يعقوب المغربي، ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

[٦٢] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

[٦٣] النكت في إعجاز القرآن [ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن] للرماني، تحقيق/ محمد خلف الله، د/محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط الثالثة، ١٩٧٦م.

[٦٤] آل . حم . غافر . فصلت (دراسة في أسرار البيان)، دكتور/ محمد محمد أبو موسي، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٩م.

فهـرس الموضوعات

فهرس المحتويات	الصفحة
مقدمة	١٦٠١
تمهيد	١٦٠٥
المبحث الأول: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ"ما" في خواتيم الآيات	١٦١٥
المسلك الأول: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– مع إثباته لمتعلقه	١٦١٥
السياق الأول: سياق بيان ضياع نفقات الكافرين وعدم جدواها.	١٦١٥
السياق الثاني: سياق تحذير المنافقين من مصير المكذِّبين من الأمم المكذِّبة.	١٦٢٣
السياق الثالث: سياق التسجيل على المشركين بالغفلة وعدم اعتبارهم بعاقبة من سبقهم من المكذِّبين.	١٦٣٠
السياق الرابع: سياق بيان تنوع عقاب الله – تعالى – للمكذِّبين من الأمم الغابرة.	١٦٣٥
السياق الخامس: سياق تهديد المشركين بتذكيرهم بمصير من سبقهم من المكذِّبين.	١٦٣٩
السياق السادس: سياق التضييق على اليهود بتحريم الطيبات لظلمهم لأنفسهم.	١٦٤٣
المسلك الآخر: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– دون إثباته لغيره	١٦٤٨
المحور الأول: سياق نفي تسوية أهل الإيمان وأهل الكفر في الآخرة نعيمًا وعذابًا.	١٦٤٨
السياق الأول: سياق نفي تسوية أهل الإيمان وأهل الكفر في الآخرة نعيمًا وعذابًا.	١٦٤٨

السياق الثاني: سياق تخويف مؤمن آل فرعون قومه وتحذيرهم من مصير الأمم المكذِّبة.	١٦٥٤
المحور الثاني: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بصيغة المبالغة مقيدًا بـ"العبيد"	١٦٦١
السياق الأول: سياق تسلية النبي (ص) وحثِّه على الصبر في مقابل تطاول أهل الكفر والضلال.	١٦٦١
السياق الثاني: سياق الحديث عن الحساب والجزاء.	١٦٦٥
المحور الثالث: نفي كينونة الظُّلم طبعًا وعادةً عن الله – تعالى–	١٦٧٠
سياق تحذير كفار قريش من عاقبة التكذيب.	١٦٧٠
المبحث الثاني: نفي الظُّلم عن الله – تعالى– بـ" ليس" في خواتيم الآيات	١٦٧٤
السياق الأول: سياق الحديث عن قبائح اليهود وعقابهم الشديد عليها.	١٦٧٤
السياق الثاني: سياق تصوير شدة عذاب الكافرين عند الوفاة.	١٦٨١
السياق الثالث: سياق بيان سوء عاقبة المجادل في الله –تعالى– عن جهالة وضلال.	١٦٨٦
خاتمة	١٦٩٤
فهرس المصادر والمراجع	١٦٩٦